

في المشرق الإسلامي

في العصر الحديث

الأستاذ الدكتور

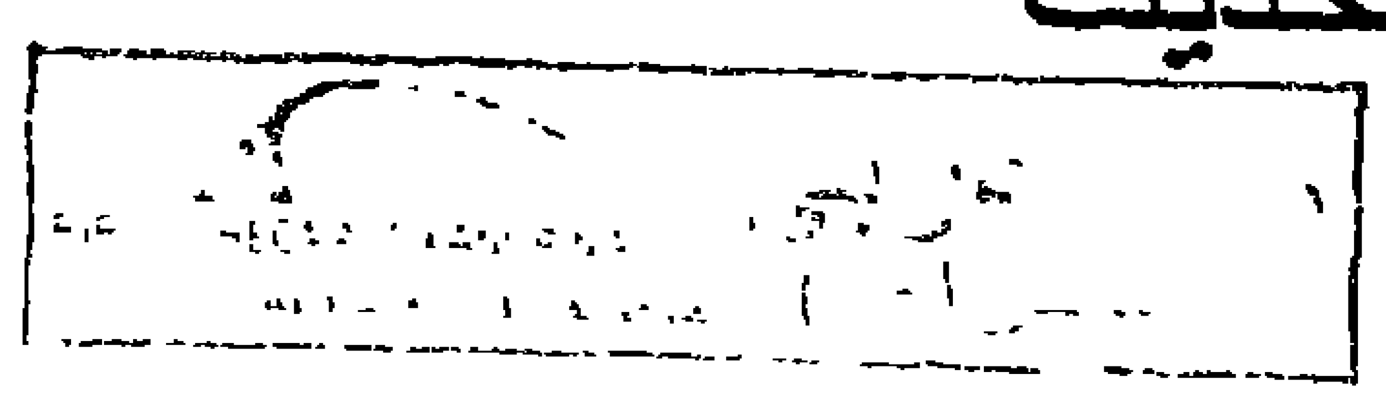
جمال محمود حجر

كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

الرحالة الغربيون

في المشرق الإسلامي

في العصر الحديث



الأستاذ الدكتور جمال محمود حجر

٢٠١١



أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

[1] سورة الروم ايه ٩٠

مقدمة

لا يهدف هذا الكتاب إلى تقديم دراسة نقدية إلى تسجيلات الرحالة الذين جابوا شبه الجزيرة العربية والمناطق الجاورة، ولا إلى مناقشتهم فيما قدموا من معلومات سمعوا بها أو رأوها رأي العين، مع أن ذلك كان يمكن أن يكون من بين أهدافه، لأن ذلك من بين أهداف مقرر آخر هو: "النصوص التاريخية". ولكننا جعلنا الهدف الأصيل له هو أن يتمكن الطلاب من أن يروا المناطق التي زارها الرحالة بعيون الرحالة أنفسهم وبفكر الرحالة أنفسهم، أو بعبارة أخرى نقل الطلاب إلى المكان الذي زاره الرحالة في الزمان نفسه، وليس في زماننا، لكي يتدربوا على الحكم على الأشياء والأفكار بمعايير العصر وأفكاره، وليس بمعايير وأفكار العصر الذي نعيشه.

إنها مهمة صعبة، لا يستطيع أن يتمثلها إلا من تدرب عليها تدريبا يجعله يعيش التجربة التاريخية التي يقرأ عنها. إنها قضية منهجية في المعالجة التاريخية، وبالتالي فإن ما نقدمه هنا ليس إبداعا في الكتابة التاريخية، بل هو على غير ذلك استحضار واستدعاء لمشوار هؤلاء الرحالة الذين وقع الاختيارعليهم لكي يكونوا النماذج التي نخضعها للدراسة، ونستعرضها أمام الطلاب، مستخدمين لغة الرحالة أنفسهم ومستعرضين أفكارهم وانطباعاتهم كما هي، تمهيدا لمناقشة الطلبة فيها.

ولهذا كان من الطبيعي أن يتنوع اختيار الرحالة، من بين الرجال والنساء، لنتمكن من رؤية الجنسين وتفاعلهما مع المكان

والإتساع في الزمان، وكذلك اختيار رحالة ينتمون إلى فتـرات زمنيـة مختلفة، اعتبارا من القرن السادس عشر إلى الآن، وكذلك اختيار رحالة متفاوتين في الأعمار، ليدلي كل منهم بدلوه في مجـال اهتمامـه فـي المرحلة العمرية التي يعيشها، وكذلك اخترنا رحالة ذوي أهداف متفاوتة؛ كالبحث العلمي، والتنقيب عن الآثار، ودراسة النباتـات والحيوانـات، وحب المغامرات، وأعمال الجاسوسية، والمهـام الـسياسية، وأعمـال التبشير، وغير ذلك من الأهداف.

لذلك كله، فإن الكرنفال الذي نقدمه في هذا الكتـاب لـم يـأت عشوائيا، وإنما جاء بناء على دراسة متعمقة للهدف منه. وفوق ذلك فإن ما تم اختياره من أدبيات الرحالة إما أنه جاء من لغته الأصلية وتوفرنـا على ترجمته، أو أنه مترجم إلى العربية فاستعنا به بشكل مباشر؛ فـإن كانت أدبيات الرحالة مقالا أو محاضرة، قدمناه كما هو تقريبا، وإن كان كتابا، استخلصنا منه غايتنا التي تخدم هدف الدراسة، مع مراعاة الأمانة العلمية في الإشارة إلى ذلك.

وعلى الله قصد السبيل.

جمال محمود حجر

الإسكندرية في أول أكتوبر ٢٠٠٧

تمهـــيد

تكمن قيمة الرحلة، أي رحلة، في أنها تأتي إلينا بمعلومات عــن أماكن لم يرتدها أحد من قوم الرحالة أو قرائه، إذ لا قيمة لمكان لا يوجد فيه إنسان يدرك هذه القيمة، ولا قيمة للجمال إن لم يوجد مــن يتأملــه ويتذوقه، ولا قيمة للنقد العلمي إن لم يكن وسيلة للإصـــلاح أو الفهــم، وهكذا. ولولا أن الرحالة كان مدركاً لوجود من يشاركه انطباعاته، التي كونها وقت الرحلة، ما كتب أحدهم شيئاً، بل لعله اكتفى بما رأى أو سمع لنفسه، والرحالة وهو يكتب على هذا النحو، إنمـــا يقـــدم لنـــا الحقيقـــة التاريخية بأسلوب قصصي، قد يخلط فيه بين مشاعره الخاصـــة وبـــين الحقيقة، فيمتزج عنده الذاتي بالموضوعي. وهذا ما يدفع الباحث للقراءة المتأنية الناقدة.

وحين نتحدث عن أدبيات الرحلة، فإننا نتناول مجموعـــة مـــن المعلومات عن المؤلف (الرحالة) وهو يتحدث عن الدوافع التي دفعتـــه إلى حزم أمتعته، والطرق التي سلكها في تنقلاته، ووسائل الانتقال التي استخدمها، والمشاعر التي لازمته عند كل موقف التقـــاه، أو منعطـــف صادفه، فضلاً عن وصفه الأماكن التي مر أو نزل بها، و الشخـــصيات التي التقاها، وانطباعاته عن تلك اللقاءات، والخبرات التي اكتسبها مـــن كل ذلك. وعلى هذا النحو يقدم الرحالة صورا متكاملة عن نفـــسه فـــي المكان والزمان والمجتمع، أي أنه بعبارة أخرى يقدم صـــورة اللحظـــة التاريخية التي عاشها، باعتبارها لحظة معاصرة رآها بأم عينيه. وربما

يدفعنا ذلك إلى القول: إن أدب الرحلات أشبه ما يكون بالمذكرات، التي تتميز بشئ من الإبداع والإمتاع، الذي يفرزه ذلك التفاعل الخلاق بين الإنسان والمجتمع والبيئة، وهو إبداع مشروع يقدم فيه الرحالة انطباعاته ورؤاه أولاً بأول.

والكتابة التي تفرزها مثل هذه التجارب الإنسانية، إنما تكون أقرب ما تكون إلى الصدق، والصدق حالة إنسانية، تعكس صورة اللحظة التي عاشها الرحالة بكافة جوانبها المادية و المعنوية و الانفعالية، دونما تصنع أو تزيد، رغم ما قد يكون بها من مبالغة أحيانا. ويستطيع الكاتب الماهر في مثل هذه الحالة أن يصطحب القارئ معه في رحلته في يسر يجعل الأخير يواصل القراءة دون ملل، وهو يتجول مع الرحالة في أماكن يعز عليه الوصول إليها بمفرده، أوحتى في جماعة؛ لأن الزمان يستحيل استدراكه. ومع أن الرغبة في الترحال قديمة قدم فضول الإنسان في البحث عن المعرفة، إلا أن الاهتمام بأدب الرحلات ربما يرجع إلى القرن التاسع عشر، عندما ظهرت رحلة ابن بطوطة مترجمة إلى اللغتين الفرنسية[1] والإنجليزية.

والحديث هنا عن الرحالة الذين جابوا المنطقة العربية، يجعلنا نقف على حقيقة أن الرحالة نادراً ما يجوب وحده صحارى الجزيرة العربية ومسالكها، وإنما كان الرحالة يتحرك فى جماعة من البدو هم بالضرورة أهل المنطقة التي يجوبها، لأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك دون

[1] عبد الهادي التازى " أدب الرحلات: هل سيختفي من الساحة ؟ " ، في كتاب دارة الملك عبد العزيز، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية ، جـ١ الرياض ١٤٢٤، ص ١١ و ما بعدها.

موافقتهم. أو أن يتحرك في قافلة عابرة إلى هذه المنطقة، إذا كانت تقع على طريق تاريخية للقوافل. وتشكل حركة القوافل هذه نمطا متكاملا للحياة في مجتمع متنقل؛ فالقافلة تضم من بين ما تضم العالم والقاضي والإمام والمرشد والمربى والطبيب والصيدلاني والتاجر والصانع والطباخ، وكل معه أدواته التي يمارس بها مهنته؛ بالجودة التي تدفعه للتنقل إما للتعلم أو لإثبات الذات. وبالطبع فإن لكل أساليبه في الحياة، سواء بمفرده أو داخل الجماعة المستقرة أو المتحركة. والقافلة جماعة متحركة ترافقها بالطبع قوات خاصة للحماية، تنتهي مهمتها بانتهاء الرحلة ووصولها إلى غايتها. والتفاعل بين كل هذه العناصر البشرية المرتحلة أمر يستحق التأمل، ونتاجه يستحق الدراسة كذلك. والرحالة يجد فى ذلك مادة ثقافية واسعة المدى تساعده في فهم ما يجري حوله. فمن خلال هذا المناخ العام كان الرحالة فى إطار القافلة يتزود بالمعرفة مباشرة من مصادرها على أرض الواقع.

ولكن لماذا يسافر هذا الرحالة أو ذاك، إنه يسافر لأجل نفسه، لطموح شخصي يسعى لتحقيقه، إنه يحقق متعه ذاتية مباشرة، وربما يستطيع أن يضع صورة ما استمتع به أمام أصدقائه، أو أمام المهتمين بالمجال نفسه من أعضاء الجمعيات العلمية، أو الندوات الثقافية والاجتماعية، أو المجالس العلمية، أو الباحثين، أو غيرهم. وعادة ما تكون المادة التي يقدمها الرحالة مزودة بالصور والرسوم والخرائط، فضلاً عن الحكايات المسلية، والمعلومات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والجغرافية والتاريخية، التي يمكن إعادة توظيفها

بمنهجية علمية حديثة، تساعد على فهم المجتمعات في الماضي. إن معظم الرحالة الغربيين إلى الجزيرة العربية كانوا يرتحلون لتحقيق أهداف محددة، بعضها علمي وبعضها أثري، ولكن معظمها كان يهدف إلى تحقيق تطلعات سياسية بتكليف من مسئولين حكوميين.

ومن الرحلات ذات الأهداف السياسية رحلة ليون روش إلى الحجاز في عامي ١٨٤١ و ١٨٤٢، بتكليف من الحاكم الفرنسي على الجزائر (المارشال توماس بوجو). فقد سبق لليون روش الفرنسي أن شارك مع أبيه في الحملة الفرنسية على الجزائر عام ١٨٣٠، ثم تعلم اللغة العربية هناك، وخالط أهلها، وتولى شئون الترجمة في الإدارة الفرنسية بالجزائر. وأثناء الهدنة بين الأمير عبد القادر الجزائري وفرنسا، دخل ليون روش في خدمة الأمير عبد القادر في خريف عام ١٨٣٧، وأصبح مقرباً إليه، وتعلم الدين الإسلامي وأعلن إسلامه. وبعد عامين توترت العلاقات من جديد بين فرنسا والأمير عبد القادر، فهرب ليون عائداً إلى فرنسا ومعه أسرار الأمير، التي وظفها لخدمة بلاده فرنسا ضد الجزائر. وكشف ليون وقتها عن أنه لم يكن مسلماً، وإنما كان جاسوساً على الأمير والمسلمين.

وفي عام ١٨٤١ كلف الحاكم العسكري الفرنسي للجزائر صاحبنا ليون روش بمهمة تهدف إلى إضعاف القوة الحربية للأمير عبد القادر، ليفت في عزيمة الجهاد عند المسلمين، وفي هذا الإطار نجح الفرنسيون في صياغة فتوى تبيح للمسلمين الجزائيين العيش في ظل الاحتلال دون مقاومة. ولكي يكون لمثل هذه الفتوى مصداقية، رأى

الفرنسيون ضرورة كسب التأييد لها من بعض علماء المراكز الدينية فى العالم الإسلامي، وكان روش مرشحاً لمهمة السفر إلى تلك المراكز حيث هي في مشرق العالم الإسلامي.

وظف روش المال لشراء الذمم من أجل الحصول علـــى تأييــد لهذه الفتوى، وربما يذكرنا هذا بدور لورانس العرب فيما بعــد، خـــلال الحرب العالمية الأولى. وفي إطار التنــسيق العـــام بـــين المـــسؤولين الفرنسيين ساعد القنصل الفرنسى في جده[1] روش في مهمته الـــسياسية. وارتحل روش إلى الأماكن المقدسة، ونجح في مهمتـــه الـــسرية، إلا أن أمره قد اكتشف فى النهاية، وتم تهريبه بصفته جاسوساً نـــصرانياً إلـــى خارج الأماكن المقدسة.[2]

كتابات الرحالة إذن من المصادر المهمة فـــي تـــاريخ الجزيـــرة العربية، إذ لا يمكن لباحث يعتمد المنهج العلمي أن يهمـــل أثـــر هـــذه الرحلات المباشر في كتابة التاريخ بصفة عامة وتاريخ المنطقة العربية بصفة خاصة. ويظهر ذلك من رحلات الكابتن وليم أيـــرفن شكـــسبير[3] البريطاني، الذي ولد في الهند وتعلم في بريطانيا تعليماً عسكرياً، ثم عاد إلى الهند ليخدم فى الجيش البريطاني، وهناك تعلم العديد من المهارات، وبذلك تهيأ شكسبير للعمل فى منطقة الخليج؛ ففـــي عـــام ١٩٠٤ عـــين

---

[1] كان القنصل الفرنسى في جده يقيم وقتئذ فى القاهرة.

[2] بلقاسم سعد الله، " رحلة ليون روش إلى الحجاز ١٨٤١, ١٨٤٢ " فى كتاب دارة الملك عبد العزيز، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، جـ١ (الرياض ١٤٢٤) ص ٢٤٩ ـ ٢٨٢.

[3] Winstone, H.V.F., **Captain Shakespear, A Portrait** (London, 1978)

قنصلاً لبريطانيا في بندر عباس على الجانب الإيراني. ثم مساعدا للسير برسي كوكس في بوشهر، مقر الإدارة البريطانية في الخليج، ثم وكيلاً سياسياً لبريطانيا في الكويت. ومن الكويت بدأ كوكس يجوب الجزيرة العربية للتعرف على قبائلها وشيوخها قبيل الحرب العالمية الأولى.

ودور شكسبير واضح في محاولة استقطاب عبد العزيز آل سعود للوقوف إلى جانب بريطانيا في الحرب العالمية الأولى، وهي محاولات انتهت إلى فشل ذريع حين قتل شكسبير في معركة جراب عام ١٩١٥. وقبل ذلك كان شكسبير يجوب شبة الجزيرة العربية، في محاولة للتعرف علي مراكز القوى فيها، وللتعرف على جغرافيتها تمهيداً لإحداث تغييرات جوهرية في السياسة البريطانيا في المنطقة، إذ كانت بريطانيا تعتمد في تعاملها مع شبه الجزيرة العربية على أطرافها البحرية فقط، أما الآن وعلى يدى شكسبير، فهي تحاول أن تقحم نفسها في منطقة القلب منها؛ إذ قام شكسبير خلال الفترة من ١٩١١ إلى ١٩١٤ بست رحلات، كانت آخرها هي أطولها، إذ جاب الجزيرة العربية من أقصى شرقيها إلى أقصى غربيها وصولاً إلى مصر. وكان لقاء شكسبير بعبد العزيز آل سعود عام ١٩١٠ بالكويت من اللقاءات الأولى التي فتحت أبواب التواصل السعودي البريطاني في القرن العشرين.[1]

كما يتضح الدور السياسي للرحلة من الدور الذي قام بيه سان جون فيلبي، البريطاني الذي ولد في الهند والذي تعلم في جامعة

---

[1] انظر: Hagar, G.M., **Britain, Her Middle East Mandates, and the Emergence of Saudi Arabia**, (Ph. D. 1981)

كيمبردج، ثم عاد إلى الهند بعد أن تعلم بعض لغات الـشرق، والتحـق بالخدمة في حكومة الهند البريطانية، وظل هناك حتـى قيـام الحـرب العالمية الأولى، حين استدعى للخدمة فى العراق عام ١٩١٥ للعمل تحت رئاسة سير برسي كوكس، كبير الضباط السياسيين فى الجيش الهنـدي بالعراق. وفى العام نفسه كلفه كوكس باستكمال الدور الذي كان قد قـام به الكابتن شكسبير الذي قتل في معركة جراب ١٩١٥[1]، وذلك بهـدف استنفار عبد العزيز آل سعود ضد الأتراك العثمانيين، ودعـم المجهـود العسكري البريطاني ضدهم، وتحسين العلاقـات الـسعودية الكويتيـة، وتحسين العلاقات السعودية مع شريف مكة، خدمة للمصالح البريطانية.

نجح فيلبي في توطيد علاقاته مع عبد العزيز آل سعود، ويـسر له الترحال في صحارى شـبه الجزيـرة العربيـة مهامـه الـسياسية والعسكرية، وصاغ ملاحظاته في شكل محاضرات في الجمعيات العلمية البريطانية، وفي شكل مقالات نشرها في الدوريات البريطانية، وفي كتب نشرتها له دور النشر البريطانية، ترجم عدد كبير منها إلـى العربيـة، بحيث أصبح هذا الرصيد مصدراً لا غنى عنه لكل من أراد الكتابة عن شبة الجزيرة العربية فيما بين الحربين العالميين، أما فيلبي نفسه ومؤلفاته فقد أصبحا مجالاً مفتوحاً للدراسات التاريخية الحديثة والمعاصرة.[2] ولعل من أبرز ما كتب فيلبي عت نشاطه في بلاد العرب ما نورده هنا بهدف

---

[1] Carruthers, "Captain Shakespear,s Last Journey" **Geographical Journal,LIX** (1922)

[2] يحيى عبد الرءوف جبر " شمال شبه الجزيرة العربية فى مصنفات الرحالة " فى كتاب: دارة الملك عبد العزيز، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، جـ١، الرياض ١٤٢٤هـ ص ٢٨٧-٣٢٠.

توضيح درجة الاهتمام التي أولاها للجزيرة العربية، بصرف النظر عن أهدافه من وراء ذلك :

Philby, St. J. B., *The Heart of Arabia* (London 1922).

Philby, St. J. B., ' Jauf and the North Arabian Desert' , *The Geographical Journal*, lxii (1923) pp. 241-59.

Philby, St. J. B.,' Transjordan' , *Journal of the Central Asian Society*, xi (1924) pp. 297-312.

Philby, St. J. B.,' The Triumph of the Wahhabis' *Journal of the Central Asian Society*, xiii (1926) pp. 293-319.

Philby, St. J. B ,.*Arabia of the Wahhabis*) London 1928.(

Philby, St.J.B.,'The Trouble in Arabia, Iraq and Nejd Frontier' ,*Contemporary Review*, xli (1928) pp. 705-15.

Philby, St. J. B.,' Arabia 1926-1929, Three Years of Wahhabi Rule' , *Contemporary Review*, cxxxvii (1929) pp. 714-19.

Philby, St. J. B.,' Arabia Today' , *International Affairs*, xiv (1935) pp. 619-34.

Philby, St. J. B., *Arabian Days: An Autobiography* (London 1948).

Philby, St. J. B., *Forty Years in the Wilderness* (London 1957).

ومن رحلات فيلبي ذات الأهداف السياسية أيضا، رحلته التي كان ينقب خلالها في خرائب وادي القرى، بهدف تأصيل الوجود اليهودي في جزيرة العرب، ورغم الظاهر البحثي الأكاديمي لمهمة فيلبي، إلا أنه بحكم وظيفته كان يبحث في قضايا ذات أبعاد سياسية أو تاريخية، يثبت من خلالها حقوقاً معينة.

وقبل ذلك وخلال الحرب العالمية الأولى كان البريطانيون يواجهون مشكلة تهريب البضائع من الكويت إلى العراق العثماني والبلدان المجاورة، وكانت هذه البضائع تصل إلى الجيش العثماني المعادى. وقد كلف فيلبي بحل هذه المشكلة[1].

ولولا الكتابات التي قدمها الرحالة لفاتنا الكثير مما لا تتضمنه الوثائق من عادات الشعوب وتقاليدها، وتطور أنشطتها وثقافاتها، وعلى سبيل المثال ذلك الدور الذى كانت تقوم به هرمز عند مدخل الخليج العربي والذي أخذ يتضاءل بعد طرد البرتغليين منها إلى أن خبا تماما عند مطلع القرن التاسع عشر. فقد وصفها صمويل منستي Samuel Manesty وهارفورد جونز Harford Jones بأنها لم تعد مهمة[2].

---

[1] عبد الله بن محمد المطوع، " الرحالة الغربيون ورواياتهم عن الإحساء " في: المرجع السابق. ص ٣٤٩ ـ ٣٩٦.

[2] انظر تقرير منستي وجونز الموسوم : "التجارة في جزيرة العرب وفارس" في: احمد مصطفى أبو حاكمة، تاريخ الكويت، (١٩٦٠) ص ٦٠

ترتب على انطفاء نجم هرمز بزوغ نجم مـــواني أخـــرى فـــي منطقة الخليج العربي مثل ميناء جمبرون (بندر عباس فيما بعد) الـــذي نشط منذ القرن السابع عشر، وزاره كثير من الرحالة وأقاموا فيه، ومن هؤلاء جون سترايس، الذي زار المنطقة في الفترة من مارس إلى يوليو عام ١٦٧٢، وسجلت تفاصيلها في الكتاب الذي كتـــب عنــــه بعنـــوان: **الرحلات الصعبة والمخاطر التي واجهها جون سترايس**[١] والشيء نفسه سجله جون فرير، حينما زار المنطقة في الفترة من إبريل إلـــى يونيـــة ١٦٧٦، في كتابه الموسوم: **تقرير جديد عن ســـركة الهنـــد الـــشرقية وفارس**[٢]

---

[1]. J. Struys, **The Perilous and most Unhappy Voyages of John Struys** (London 1693)

[2]. J. Fryer, **A New Account of East India and Persia** (London 1698)

I

رحلة فارتيما عبر الجزيرة العربية

Ludovico Di Varthema

عام ١٥٠٣

I

رحلة فارتيما عبر الجزيرة العربية

Ludovico Di Varthema

عام ١٥٠٣

شهد مطلع القرن السادس عشر نشاطاً بحرياً كشفياً أوربياً على أيدي البرتغاليين، وعلى خط مواز نجح البرتغاليون في استقطاب مغامرين ورحالة من غير البرتغاليين للقيام برحلات برية تكتشف معالم الطرق البرية، منهم لودفيكو دي فارتيما الإيطالي الأصل، كما فعل الإسبان قبل عشر سنين مع كريستوفر كولومبس الإيطالي الأصل أيضاً، في رحلاته البرية عبر الأطلنطي لكشف طريق بحري إلى الشرق بالاتجاه غرباً، ليكون بديلاً عن الطريق التقليدية المعروفة وقتئذ عبر مصر والشام.

وخلال الفترة من ١٥٠٣ إلى ١٥٠٩ استطاع فارتيما أن يتوج جهود البرتغاليين الكشفية البحرية برحلات برية متصلة، زار خلالها مصر وسوريا وشبه الجزيرة العربية واليمن وبعض سواحل الخليج وفارس والهند وسواحل شرق أفريقيا. وقد تزامنت رحلات فارتيما مع رحلة فاسكو دا جاما الثانية عام ١٥٠٢. وبينما كانت كشوف البرتغاليين البحرية تهدف إلى السيطرة وفرض النفوذ البرتغالي على الطرق المؤدية

إلى الشرق، كانت رحلات فارتيما تهدف إلى التعـرف علـى عـادات الشعوب وثقافاتهم واقتصادياتهم من تجارة وصناعة وزراعة.

وعرف فارتيما خلال رحلاته المتصلة بأسماء مختلفة، فقد قـدم نفسه لأهل الجزيرة العربية وفارس على أنه الحاج يـونس المـصري، وأحياناً يونس المملوك المصري، وفي الهند قدم نفسه باعتباره الحـاج يونس العجمي، ويبدو أنه كان رجلاً عسكرياً نظراً لاهتمامـه بوصـف الأسلحة والمدافع والتجمعات العسكرية، في وقت كانت أوربا تعيد تقويم معارفها القديمة عن العالم الإسلامي، لترتيب مواجهته بوسائل جديـدة، فشمال أفريقيا كان في نظرهم منطلقاً للقرصنة البحرية، وفي مصر كان المماليك يمارسون نشاطاً احتكارياً، وفي شرقي أوربـا كـان الـضغط العثماني على أشده منذ عام ١٤٥٣.

يقول فارتيما في تبرير رحلاته إلى الشرق الإسلامي: ثمة أناس كثيرون كرسوا أنفسهم للبحث في هذا العالم بتقـديم العـون للبحـوث والدراسات والرحلات وما له صلة وثيقة بكل هذا، محاولين بذلك تحقيق رغباتهم... وهناك آخرون كان ذكاؤهم أكثر حدة، فلـم تكـن الأرض لتتسع لبحوثهم وتأملاتهم... فبدأوا يستعرضون المناطق العليا في السماء يتفحصونها ويلاحظونها بدقة، وقد حظى هؤلاء من كـل مـن عرفـت بالمديح الذي هم جديرون به، كما حققوا ذواتهم وشعروا بالرضا عـن أنفسهم. ولهذا السبب فقد قررت أن أتقصى بعض البقاع الصغيرة مـن كرتنا الأرضية، شاعراً برغبة عارمة لتحقيق الغايات نفسها... لذا فقـد قررت أن أرى شخصياً، وبعيني، وأن أحاول التأكد من مواقع الأمـاكن

ونوعيات البشر، وأجناس الحيوان، وأن أرى بنفسي الثمار المختلفة والأشجار العطرية التي تنبت في مصر وسوريا وصحراء شبه الجزيرة العربية، وبلاد العرب السعيدة وبلاد فارس وأثيوبيا، واضعاً في اعتباري أنه ليس من رأى كمن سمع، وأن دليلاً واحداً تقدمه عين شاهدت يفوق في قيمته عشر روايات مسموعة... ".

وفيما يلي سنعرض لرحلة فارتيما في بلاد العرب الصحراوية، دون رحلته في بلاد العرب السعيدة، معتمدين في ذلك على الترجمة العربية لرحلات فارتيما، التي نشرتها الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٩٤.[1]

يقول فارتيما: إنه فكر في أن يجوب البلاد غير المطروقة لشعبه، وخاصة البلاد التي لم يرها أهل البندقية. كانت قبلته الأولى الإسكندرية للتزود باحتياجات الرحلة، ولم تكن الإسكندرية مطلوبة لذاتها لأنها كانت معروفة للأوربيين. فمر منها إلى القاهرة، التي كانت في نظره في حجم مدينة روما، ولكنها ثرية وجميلة.

ومن القاهرة رحل إلى سوريا فنزل في بيروت، التي وجدها مدينة مزدحمة جداً بالمسلمين، وتزخر بالبضائع المختلفة. فخرج منها متوجهاً إلى طرابلس، التي كانت تتبع السلطان الغوري في القاهرة (سلطان المماليك قبل المد العثماني إليها عام ١٥١٦) ومنها توجه إلى حلب، فوجدها مدينة جميلة، وتخضع لسلطان القاهرة المملوكية أيضاً،

---

[1] رحلات فارتيما ، ترجمة وتعليق: عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، الألف كتاب الثاني، رقم ١٣٤ (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤) عن كتاب:
John W. Jones, The Travels of Ludovico Varthema ...

وسكانها مسلمون، وهي سوق لبضائع تركيا وسوريا معاً، وهـي ممـر عظيم للبضائع الفارسية خاصة. ومنها توجه إلى حماه في طريقه إلـى دمشق. فوجد أهل حماه يزرعون القطن والفواكه.

ولدى وصوله إلى دمشق قال: ليس من الممكن وصف جمـال دمشق وتميزها، وفيها أقام بضعة أشهر لتعلم اللغة العربيـة، ودمـشق تابعة لسلطان القاهرة. وهي عامرة بالسكان وثرية، فيها وفرة هائلة في الغلال واللحوم، "والمنطقة كلها زاخرة بالفاكهة التي لم أر لها مثيلاً من قبل..."

وفي عام ١٥٠٣ توجه فارتيما إلى مكة، وقـد حـرص بعـد الترتيب مع قائد القافلة المملوكي على أن يستمتع بما يراه علـى طـول الطريق، فكون صداقة عميقة مع هذا القائد الذي سيلبي له مطالبه؛ ومن هذه المطالب ما يبدو غريبا، كأن يتشبه بالمماليك، فيلبس ملابسهم، وأن يجعله يسير في معية مماليك آخرين، إظهارا للقوة المؤثرة، ووقوفا على خبايا الرحلة، وقد تم له ذلك.

وخلال الرحلة مر بموقع يقال له "المزيريب" حيث مقر شيخ أسرة "الزعبي" العربية، وحيث يشتري التجار ما يحتاجون من خيول هي وسيلة نقل سريعة. وهناك تشرب الخيول لبن النوق المنعش جداً، والذي يساعد على استعادة الحيوية المفقودة نتيجة الإجهاد، يقول فارتيما "صدقوني إن قلت لكم إن (الخيول) لا تعدوا وإنما تطير كالصقور"، ويمتطيها البدو بدون سرج وبدون زي خاص، فهم ذوي أحجام صغيرة، ولون أصفر داكن وأصوات كأصوات النساء، ولا يكفون عن الاقتتال

فيما بينهم، وهذه من عادات البدو. وحين تمر القوافل المتجهة من دمشق إلى مكة، ينزل هؤلاء البدو من الجبل حيث يقيمون بقصد النهب، وهم يحملون زوجاتهم وأولادهم وأمتعتهم فوق ظهور الجمال، وخيامهم مصنوعة من الصوف الأسود وتشبه خيام العسكر.

ونحو منتصف أبريل ١٥٠٣ غادرت القافلة، التي تحرك معها فارتيما من المزيريب، وكانت تضم نحو ٣٥ ألف جمل، وحوالي ٤٠ ألف شخص، في حراسة ٦٠ مملوكاً، عد فارتيما نفسه واحداً منهم. وكان عشرون مملوكاً يسيرون في مقدمة القافلة. والعشرون الثانية في وسطها، والعشرون الثالثة في المؤخرة. وظل هذا النسق الأمني منتظما في مسيرة القافلة إلى حين وصولها إلى مكة، فهي تسير في حركة جماعية، وتوقف جماعي للراحة، وإنزال الأحمال، وتغذية الدواب، ثم مواصلة الرحلة من جديد.

والجمال قادرة على تحمل مشاق السفر، وعادة ما تواصل سيرها لمدة أسبوع تقريباً، ثم تتوقف القافلة للراحة من جديد عند آبار المياه حيث تشرب، وكانت الجمال تشرب مرة واحدة كل ثلاثة أيام، ذلك أن الجمال تتمتع بقدرة فائقة على تحمل العطش. وعند موارد المياه كانت المعارك تدور بين القبائل، "وكان يتحتم علينا (يقصد قوة الحماية من المماليك الستين) دائماً أن نخوض معركة مع أعداد كبيرة من البدو، ولكنهم لم يقتلوا منا أكثر من رجل وإمرأة". كان فارتيما يعتبر نفسه مملوكاً، فيقول " كنا لا نزيد عن ستين مملوكاً، وكنا قادرين على مقاومة

أربعين ألف أو خمسين ألف من البدو، الذين لا يجيدون استخدام السلاح كالمماليك"، الذين يجيدون ركوب الخيل والقتال.

وصل فارتيما إلى سدوم وعاموراء، التي وجدها كما وصفها الكتاب المقدس، فالمرء كما يقول فارتيما "يرى رأى العين أنهما قد خربتا نكالاً من الله"، لأن أهلها كانوا شعباً شريراً (يقصد قوم لوط) الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم بأنهم: أهل "القرية التي كانت تعمل الخبائث، إنهم كانوا قوم سوء فاسقين" [1]. "فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد" [2]. وقال الله تعالى: "وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين" [3] وقال تعالى: "إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر" [4].

يقول فارتيما إن الأرض التي كانت فيها هذه القرى موات، لا تنبت ما يؤكل والماء معدوم، فحاق بهم عذاب الله الذي جعل ديارهم خراباً لتراها الأجيال، قال تعالى: "إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون، ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون" [5]. وفي هذه المنطقة مات منهم ثلاثة أشخاص، من بين ٣٣ ماتوا عطشى.

---

[1] الأنبياء ، آية ٧٤
[2] هود ، آية ٨١ ، ٨٢
[3] الشعراء ، آية ١٧٣
[4] القمر ، آية ٣٤
[5] العنكبوت ، آية ٣٤ ، ٣٥

ثم وجدت القافلة بئر ماء صغير فحطت بالقرب منه. وفي اليوم التالي أقبل ٢٤ ألف بدوي قائلين إن الماء ماؤهم، وأن على القافلـة أن تدفع لهم ثمن ما سقوا، وحينما قيل لهم إن الماء ماء الله شرعوا في قتال القافلة، وحاصروها لمدة يومين وليلتين. ولكن الماء نفد ولم يعد لدى أي من الطرفين منه شيئا، واضطرت القافلة لدفع مبلغ من المـال (١٢٠٠ دوكة ذهبية)، ثم أعادت القافلة ترتيب دفاعاتها أثناء مغادرتها المكان، إذ أمر قائد القافلة الرجال القادرين على حمل السلاح بـأن يترجلـوا، وأن يكونوا جميعاً مستعدين بالسلاح، وأن يكون جميـع المماليـك، ومـنهم فارتيما، خلف القافلة. وبذلك بلغ عدد المسلحين في القافلـة نحـو ٣٠٠ شخص في مواجهة مباشرة مع البدو، فقتلوا منهم ١٦٠٠ شخص، بينما قتل من القافلة رجل وإمرأة. نلاحظ هنا أن الاقتتال حول آبار الماء كان أمرا واردا بين القبائل، فالماء في الصحراء هو سر الحياة، ومن يسيطر على موارد الماء يسيطر على الصحراء.

وبعد ذلك وجدت القافلة جبلاً صغيراً يسكنه مجموعة من الناس يبلغ عددها أربعة آلاف أو خمسة آلاف يهودي، يروحـون ويجيئـون عراة، قصار القامة، أصواتهم كأصوات النساء، ويغلب عليهم الـسواد، ولا يأكلون إلا لحوم الغنم، ويعترفون بأنهم يهود، وإذا ما وقع في أيديهم أحد المسلمين سلخوه حياً، وعندما رأى اليهود القافلة راحـوا يحومـون حول الجبل كالماعز البرية، إلا أنهم لم ينزلوا إلى السهل، رغـم أنهـم يعادون المسلمين حتى الموت.

وبعد يومين توجهت القافلة إلى المدينة المنورة، وقبل الدخول إليها وبالقرب منها وجدت القافلة بئراً حيث استحم كافة أفراد القبيلة، ووضعوا ثيابهم التقليدية، وارتدوا أثواب الإحرام الخاصة، المصنوعة من كتان نظيف، (الإحرام لا يكون إلا بنية العمرة أو الحج إلى مكة، ولكنه ربما قصد التطهر والنظافة قبل دخول المدينة وزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم). يصف فارتيما مساكن المدينة المنورة المشيدة من الحجر، والتي يبلغ عددها نحو ٣٠٠ منزل ويحيط بها سور من الطين. والمنطقة المحيطة بها مجدبة صحراوية قاحلة، وبالقرب منها يوجد بستان به نحو خمسين أو ستين نخلة، وبآخر البستان توجد قناة ارتوت منها القافلة عند وصولها.

وقد سجل فارتيما بعض الخرافات التي يرددها العامة حول قدسية الرسول، وأشار إلى حرص قائد القافلة على رؤية جسده الطاهر، ولكنه لم يوفق. ووصف فارتيما مسجد الرسول من حيث الأطوال وعدد الأعمدة وشكل السقف، ومكتبة المسجد، ومقابر الصحابة. وبقيت القافلة في المدينة أربعة أيام ليستريح خلالها الرجال والجمال.

يصف فارتيما الطريق بكامل تفاصيله، بما يكشف عن حجم صعوبة الرحلة، وخاصة الحاجة إلى الماء، وغارات البدو، "وقد خضنا مرتين حرباً مع خمسين ألف بدوي... ". ولكنه حين يصل مكة يقول "إنها مدينة رائعة الجمال قد أحسن بناؤها وتضم ستة آلاف أسرة، ومنازلها جيدة كمنازلنا ". وتحيط الجبال بمكة فتصبح كالأسوار التي يتخللها أربعة مداخل. " لقد دخلنا مكة في ١١ مايو من ناحية الشمال".

رصد فارتيما قافلة الحج المصرية وهي في طريقها إلى مكـــة، وأشار إلى أن احتياجات المعيشة لأهل مكة تأتي من القاهرة ومن اليمن السعيد ومن إثيوبيا. "والحق أقول لكم إنني لم أر أبداً تجمعاً هائلاً احتشد في مكان واحد كما رأيت هنا (في مكة) خلال العشرين يوماً التي مكثتها في هذا البلد. لقد أتى بعض هؤلاء الناس بغية التجارة، وبعضهم بغيـــة الحج طمعاً في أن تغفر ذنوبهم". إذ كانت البضائع ترد إلى مكة من الهند ومن إثيوبيا وخاصة البهارات والأقمشة.

ويصف فارتيما المسجد الحرام والكعبة المشرفة بطريقة تكشف عن جهالة بالإسلام ومقدسات المسلمين. فهو يسمي المسجد معبداً، (ومع أنه مكان للعبادة فعلاً، إلا أنه يحمل اسما خاصـــا بعبـــادة المـــسلمين)، ويسمي المئذنة برجاً، ويقول إن المسجد مبني من طوب أحمـــر، وإنـــه جميل جداً، وله تسعون باباً أو مائة، في إشارة إلى كثرة أبوابـــه، التـــي يجلس حولها باعة الجواهر.

وحين تنزل بضع درجات إلى المسجد "تجد كـــل أنحـــاء هـــذا المسجد وكل شيء حتى الجدران مغطاة بالذهب" (ربما كانت هذه مبالغة في إشارة إلى الألوان الذهبية أو إلى نظافة المسجد). ويجلس بالمـــسجد أربعة آلاف إنسان من الرجال والنساء، "ومن الصعب أن أصـــف لكـــم روعة الروائح التي شممتها في المسجد. والكعبة فـــي وسـط المـــسجد مغطاة بالحرير الأسود، وبها باب من الفضة الخالصة بارتفـــاع قامـــة الإنسان.

وعند بئر زمزم يصف فارتيما عملية التطهر والتبرك بماء زمزم، فيقول: يقوم القائمون على سحب الماء من البئر بصب ثلاثة جرادل على كل شخص من الحجاج، ويستحم الجميع بهذه الطريقة، حتى الذين يلبسون ثياباً من حرير، ويقولون إنهم بهذه الطريقة يتخلصون من خطاياهم، فهم يغسلون خطاياهم بماء زمزم المبارك.

وفي إشارة لطيفة إلى مخلوقات الله غير المألوفة في الجزيرة العربية، يقول فارتيما: يوجد في موضع من المسجد الحرام مكان مسور به اثنان من الحيوان المعروف باسم وحيد القرن، وكانا قد أهداهما ملك إثيوبيا إلى سلطان مكة، باعتبارهما من أطرف ما في العالم وأجمله.

وحين زار فارتيما جدة، وجدها محاطة بمنازل عمارتها "في غاية الجمال كالمعتاد في إيطاليا"، وهي مدينة مزدحمة جداً بأعداد المسلمين الذين يأتون إليها من كل مكان، وهي تتبع القاهرة، التي تأتي منها معظم الضرورات، التي تلبي احتياجات خمسمائة أسرة، وميناؤها عامر، وبه نحو مائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة.

ويكشف فارتيما عن حجم التيارات المعادية للإسلام والمسلمين في كثير من المواضع، ومن خلال العديد من المفردات التي لا تليق بالإسلام والمسلمين، (وهي مفردات تكشف عن جهالة وتعصب وفهم خاطئ للإسلام والمسلمين، لا يزال قائما حتى اليوم). كما يكشف عن كثير من الخرافات التي سادت القرن السادس عشر حول الإسلام والمسلمين، (وهو ما دعا الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيما بعد إلى مواجهة هذا الفهم المغلوط في نجد).

وبعد زيارة جدة تحركت القافلة في اتجاه الجنوب، فمرت ببحر من الرمال البيضاء الناعمة، ظلت تسير خلاله لمدة خمسة أيام، يـصفها فارتيما بأنها كانت "أياماً صعبة". "كان الرجال يركبون فوق جمالهم في صناديق خشبية (أي المحفة أو الشبرية أو التختروان) حيـث يـأكلون وينامون داخلها، بينما كان المرشدون يسيرون على هدى البوصلة كمـا لو كانوا مبحرين. وعادة ما يموت في هذا المكان أناس كثيرون".

كانت هذه بعض جوانب الصورة التي قدمها فارتيما عن الأماكن المقدسة في الحجاز، أما باقي الرحلة فقد تمت في بلاد العرب السعيدة.

II

جوزيف بتس في رحلته إلى الأماكن المقدسة

Joseph Pitts

عام ١٦٨٠

II

جوزيف بتس في رحلته إلى الأماكن المقدسة

Joseph Pitts

عام ١٦٨٠[1]

جوزيف بتس، أو الحاج يوسف، هو أول إنجليزي في التـاريخ الحديث يزور مكة المكرمة، كما أنه أول رحالة في التـاريخ الحـديث يصف درب الحجاج من بلاد المغرب براً وبحراً إلى مصر فالحجـاز. وهو ثاني أوربي يزور مكة في التاريخ الحديث، أما الأول فهو لودوفيكو دي فارتيما المعروف بالحاج يونس المصري، الذي زار في الفترة مـن ١٥٠٣ إلى ١٥٠٩ عدداً من بلدان الشرق من بينها الحجاز، وهو إيطالي كان يعمل لحساب البرتغال (انظر الفصل السابق).

غادر جوزيف بتس إنجلترا عام ١٦٧٨ ولم يكن قد تجاوز سن الخامسة عشرة تقريباً؛ طلباً للمعرفة، وتأملا في العالم من حوله. جرى

---

(١) عرض لرحلة جوزيف بتس Joseph Pitts عن الترجمة العربية لكتابه:
A faithful account of the religion and manners of the mahometans, and pilgrimage to Macca, and a description of Medina .
ترجمة ودراسة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥).

ذلك في فترة نشاط الجهاد البحري[1] الذي أعلنه مسلمو شمالي أفريقيا ضد السفن غير الإسلامية في البحر المتوسط. وأثناء عمليات الجهاد البحري وقع جوزيف أسيراً في أيدي أحد البحارة الجزائريين فاتخذه عبداً، وعاش في كنفه بضع سنين، ثم اصطحبه إلى مكة المكرمة ليحج معه، وليزور المدينة المنورة، عبر رحلة بحرية إلى مصر، ومن السويس غادر إلى جدة، فمكة، ثم إلى المدينة المنورة. ثم عاد عبر الطريق نفسه إلى الجزائر، جرى ذلك كله في عام ١٦٨٠.

أعتقه سيده بعد أداء فريضة الحج، واعتبره ابناً له، ومع ذلك تمكن جوزيف من الهرب من الجزائر عائداً إلى وطنه الأم (إنجلترا)، وهناك أصدر كتاباً في عام ١٧٠٤ عن الإسلام. وفيما يلي سنعرض لزيارته للأماكن المقدسة.

لدى وصوله إلى رابغ لبس جوزيف بتس ملابس الإحرام، واصفاً ذلك بالتفصيل، مع عقد النية والالتزام بتعاليم الحج المعروفة. وفي جدة، وجد الأدلاء (المطوفين) القادمين من مكة " ليدلونا على كيفية أداء مناسك الحج ".

وفي مكة، "سار بنا الدليل (المطوف) في شارع واسع يتوسط البلدة، ويؤدي إلى الحرم، وبعد أن أنخنا الجمال وجهنا الدليل إلى حوض الماء للوضوء، ومن ثم ذهب بنا إلى الحرم، فدخلناه من باب السلام"، وتقدم الدليل الحجاج مرشداً إياهم وهم يرددون مثلما يقول، ويفعلون

---

[1] يعرف الغربيون الجهاد البحري بالقرصنة البحرية.

مثلما يفعل، في الطواف والسعي والصلاة. وصف بتس هذه المناسك بـ "الخرافات" مع أنه كان يفعلها، ويقول: ولا أملك إلا أن أعجب من هذه الكائنات البائسة (يقصد الحجاج) الذين يبدو عليهم التأثر الشديد، والعاطفة الجياشة، وهم يؤدون هذه المناسك".

ويصف الكعبة فيقول: تم تثبيت حجر أسود في أحد أركان بيت الله، وهو مطوق بسياج فضي... ويتقدم الحجاج نحو هذا الحجر، ويقبلونه... ويقولون إنه كان يسمى الحجر الأسعد، أي الحجر الأبيض، ولكنه اسود من خطايا البشر. ولا يخلو المطاف من الطائفين حول الكعبة ليلاً أو نهاراً". ويتضح مما أورده بتس جهالة واضحة بالإسلام وشرائعه وطقوسه، وربما يعود ذلك لصغر سنه وقلة خبرته، وعدم قدرته على استيعاب دلالة ما يجري حوله، لأن أحدا لم يعلمه ذلك.

ويصف بتس الطواف حول الكعبة فيقول: كان الرجال يطوفون في الدائرة القريبة من الكعبة، بينما النساء كن يطفن في الدائرة الخارجية الأبعد عنها، ومن لا يستطيع أن يمس الحجر الأسود يرفع يده في اتجاهه مكبراً، وفي حال وجود عدد قليل من الرجال في الطواف، كان النسوة يتوجهن لتقبيل الحجر الأسود، "ويعطي الرجال للنساء هذه الفرصة ولا يزاحمونهن احتراماً للزمان والمكان".

وتقع مكة وسط تلال صغيرة كثيرة، "لذا، فهي لا تحتاج لبوابات أو أسوار... وهي (في نظره) غير مؤهلة لاستقبال الوافدين، فما بال الآلاف المؤلفة من الحجاج الذين يصلون إليها كل عام". "والناس هنا بائسون ونحيلون جداً وهم داكنو البشرة ".

ويضيف بتس أن لدى أهل مكة بعض الخرافات والغيبيات (هكذا يسميها)، منها قولهم: "إن إبراهيم عندما شرع في بناء الكعبة، أمــر الله كل جبل في العالم أن يقدم من نفسه بعــض الأحجــار لبنــاء الكعبــة، فأطاعت الجبال جميعاً... ما عدا جبل كــرادوج، أي الجبــل الأســود بالجزائر"، وهذا هو سبب سواده. (واختياره بتس جبل كرادوج للتــشبيه هنا، إنما يرجع إلى دائرة معرفته بالمكان في الجزائر، ولا يرجع إلــى تفسير علمي أو تاريخي يستند إلى أى أصل).

ويشير بتس إلى جبل حراء فوق قمة أحد تلال مكة، ويقــول إن حراء تعني المبارك، ويقول: خارج مكة يقع تل شديد الانحدار، نحتوا له سلالم للوصول إلى قمته، التي يوجد عليها قبة تحت صخرة، يقــال إن الرسول محمد (صلى الله علية وسلم) عندما كان في الرابعة عشرة مــن عمره حمله جبريل (علية السلام) إلى هناك، وفتح قلبه، وأخــرج منــه مضغة سوداء تمثل خطايا البشر، "وقد ذهبت بنفسي إلى هــذا المكــان، وصحبني كل رفاقي حيث صليت بضع ركعات".

ويواصل بتس وصف مكة فيقول: إن فيها مــاء وافــرا، إلا أن العشب فيها نادر، وبها بعض أنواع الفاكهة كالأعناب والشمام والبطــيخ والخيار والقرع. أما الضأن فيجلب إليها من خارجها. والطقــس فيهــا حار، والناس يتنقلون في الشوارع من جانب إلى أخر بحثاً عن الظــل، والسكان ينامون على أسطح المنازل تلمساً لنــسمات الهــواء، أو فــي الشوارع أمام دورهم. "أما بالنسبة لي فقد كنت أنام عادة فــي الهــواء الطلق، دون غطاء، فوق سطح المنزل، وكنت آخذ قطعة قمــاش مــن

الكتان، وأغمسها في الماء، وأضعها فوقي في الليل، وأجدها جافة عندما أستيقظ، فأبللها مرة أخرى... وهكذا، أظل أبللها مرتين أو ثلاثة طوال الليل".

"وتبلغ أبواب المسجد الحرام ٤٢ باباً... وكلها مفتوحة وتفضي إلى ممرات مغطاة بالحصى، ما عدا بعض الممرات المرصوفة بأحجار عريضة، وهي الممرات المؤدية للكعبة المشرفة والأروقة المحيطة بالصحن... وعلى الجدران الداخلية للأروقة توجد غرف صغيرة (خلوات)... أعدت للذين وهبوا حياتهم للقراءة والدراسة والتعبد".

والكعبة مبنى مكعب يبلغ ارتفاعه حوالي ٢٤ قدماً، ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعه أربعا وعشرين خطوة، وهي مشيدة من أحجار ضخمة مصقولة، ومكسوة بكسوة من حرير سميك، مزخرف فوق وسطها بشريط (كلمات حروفها) من ذهب، "أظن أنها تشير إلى عبارات دينية، ويبلغ طول الحرف قدمين، وعرضه بوصتين، وبالقرب من الطرف السفلي للكعبة توجد حلقات نحاسية مثبتة به، تمر منها حبال من القطيفة، تربط بها الأطراف السفلية للكسوة.

وثمة باب للكعبة مرتفعة... [illegible]
وثمة ستارة معلقة عليه تصل إلى الأرض... وقد زينت بزينات ذهبية ثقيلة... وسطح الكعبة مسطح من حجر ورمل، وثمة ميزاب لتفريغ الماء من فوقه [illegible]

[illegible]

حيث ينزل الماء عليهم معتقدين أنه نفحة من السماء، ويسعدون بـذلك، ويحاولون الشرب منه... ويلجأ بعض الفقراء لجمعه وتقديم جزء منـه للحجاج لقاء منحة مالية".

ويصف بتس جوف الكعبة فيقول: "وقد أتيح لي أن أدخل جوف الكعبة مرتين طوال فترة مكوثي بمكة، حوالي لأربعة أشهر، وهو حـظ سعيد لم يتح لآلاف الحجاج... وعندما يدخل المسلم إلى الكعبة، عليه أن يصلي ركعتين في كل ركن من أركانها الأربعة... وهم يؤدون صلواتهم في جوف الكعبة بخشوع كامل واستغراق شديد، فهم لا ينشغلون بالتطلع والحملقة حولهم... وهم يقولون إن من يتطلع حوله في جـوف الكعبـة يصاب بالعمى... ولم أضع هذه الأقاويل في اعتباري، فرحـت أنظـر حولي... فلم أر سوى عمودين خشبيين في الوسط لدعم السقف، وقضيباً حديدياً مثبتاً فيهما، علقت عليه ثلاثـة أو أربعـة مـصابيح فـضية... وأرضية الكعبة من رخام، وكذلك الجدران الداخلية، وثمة كتابات عليها لم يكن لدي الوقت لقراءتها... والجدران الداخلية مغطاه بالحرير علـى ارتفاع قامات الحجاج، ولا يمكث الحجاج في الكعبة إلا لحظات... لأن هناك آخرين ينتظرون الدخول". وبعد ذلك تغسل الكعبة بمـاء زمـزم، وتكسر المكانس إلى قطع صغيرة ويلقى بها على الحجاج ليحتفظوا بهـا كذكرى.

وفي القاهرة يتم إعداد كسوة جديدة للكعبة كل عام، بـأمر مـن السلطان العثماني، وترسل محملة على جملين بفرح غامر (المحمـل)، وتستقبل في مكة بفرح غامر أيضا، ويقوم الناس بتقبيل الجملين حاملي

الكسوة، بينما يردد آخرون عبارات الترحيب، ويلمسون الكسوة بأيـديهم ثم يمسحون وجوههم لإظهار توقيرهم للكسوة، التي لم توضع بعد على الكعبة.

وتنزع الكسوة القديمة ويضع شريف مكة الكسوة الجديدة مكانها، ثم يبدأ في التصرف بالكسوة القديمة، فيخص بها نفسه، أو يقطعها قطعاً صغيرة يبيعها للحجاج، ويقطع الحبل القطني (لاحظ أنه قال من قبل إنه حبل من القطيفة أو الحرير) الذي يربط الكسوة ويبيعه أيضاً، ويـشتري كثيرون قطعاً من الكسوة لتوضع فوق صدورهم عندما توافيهم المنيـة. وهناك من يحملها معهم كتعويذة ضد الخطر، ويجمع شريف مكة مـالاً من بيع هذه الكسوة يساوي ما تتكلفه الكسوة الجديدة.

والأرض المحيطة بالكعبة مرصوفة بالرخـام[1]، وهـي أرض المطاف، وحول المطاف "توجد أعمدة نحاسية يبلغ ارتفاع الواحد منهـا خمسة عشر قدماً، ويبعد الواحد منها عن الأخر عشرين قدماً... وثمـة مصابيح معلقة فوق هذه القضبان... تضاء لـيلاً... وهـذه المـصابيح الزجاجية تملأ حتى نصفها بالماء، ويوضع الزيت ليطفو فـوق المـاء، ويوضع فوق الزيت سلك حلزوني، قائم فوق ثلاث قطع صـغيرة مـن الفلين لتجعله يطفو، وفي وسط هذا السلك توضع فتيلة، ويشعلونه فيظل مشتعلاً حتى ينتهي الزيت، وفي كل يـوم يغـسلون هـذه المـصابيح ويزودونها بماء جديد وزيت وقطن وفتائل ".

---

[1] قارن وصف فارتيما للمناطق المحيطة بالكعبة قبل ١٨٠ عاما بالفصل السابق.

وعلى بعد ١٢ خطوة من الكعبة يوجد مقام إبراهيم، ويحيط بــه شبكة حديدية، وهو مغطى بكسوة مزركشة جميلة، ويحملق الناس فيــه بحب. وعلى مسافة قصيرة منه يوجد بئر زمــزم، ويقولــون إن مــاءه مقدس وهو حلو كالحليب، ويفطرون عليه في رمضان،[1] "وبالنسبة لــي فهو لا يختلف عن أي ماء آخر". وفي شهر رمضان تملأ مئات الأباريق بماء زمزم وتوضع أمام الناس ومعها أكواب ليشربوا منهــا عنــد آذان المغرب. وعند البئر يقوم أربعة رجال بسحب الماء منها دون مقابــل، مستخدمين قرباً من الجلد، مربوطة بحبّال تجري على عجلات صغيرة عند القمة، بحيث تكون إحدى القرب صاعدة والأخرى هابطة في نفــس الوقت، ويقف الرجال ليستحموا عند البئر بالماء نفسه[2]. ويحمل الحجاج معهم إلى بلادهم قوارير صغيرة من صفيح أو نحاس ملأى بماء زمزم، ويهدونه لأصدقائهم، بواقع نصف ملعقة لكل منهم.

يواصل بتس وصف رحلة الحج، فيصف يوم عرفة وما شاهده فيه، فيقول: جبل عرفة ليس ضخماً ضخامة تجعله يــستوعب الأعــداد الهائلة من الحجاج الذين يبلغون سبعين ألفاً. والموقف في عرفة يخلــب اللب، فالحجاج في لباس التواضع والتجرد، بــرؤوس عاريــة، بللــت الدموع وجناتهم، تسمع تضرعاتهم طالبين الغفران، ويظل الحال كــذلك إلى ما بعد الغروب، وهو مشهد يتوحد فيه الناس، "وإنه لأمر يدعو إلى الأسف أن تقارن ذلك بالخلافات الكثيرة بين المسيحيين (الأوربيــين)". وبعد الغروب ينفخ في البوق إيذاناً بمغادرة عرفة فيتوجه الحجاج إلــى

---

[1] قارن وصف فارتيما قبل ١٨٠ عاما أعلاه.

[2] قارن وصف فارتيما قبل ١٨٠ عاما أعلاه.

مزدلفة فيبيتون ليلة، ثم يتوجهون إلى منى، ثم يرمون الجمرات. ومع أن بتس يبدي جهالة في كثير من الأمور، وخاصة محاولته تفسير ما يجري حوله من ممارسات العبادة، إلا أنه بصفة عامة كان يتابع بحرص شديد كل ما يجري حوله.

وبعد التضحية بالخراف، يحلق الحجاج رؤوسهم، ويخلعون لباس إحرامهم، ويهنئون بعضهم بعضا بالعيد، ويقضون ثلاثة أيام في فرح واحتفالات، ويصبح الليل نهاراً بسبب وفرة المصابيح المضاءة، ويطلقون البنادق، وتمتلئ السماء بالألعاب النارية، لأنهم يعتقدون أن كل ذنوبهم قد ذهبت أدراج الرياح، وإنهم إذا ماتوا دخلوا الجنة.

وقد قرأ بتس لبعض الكتاب أن الحجاج بعد عودتهم إلى بلادهم يصبحون أشخاصا صارمين، يقسون على أنفسهم خوفا من الوقوع في الخطيئة نتيجة النظر إلى المحرمات، كأن يحملقوا لمدة طويلة في قراميد محماة، أو قوالب من حديد ساخنة، حتى يفقدوا القدرة على الإبصار، كي لا تقع أعينهم على شيء من المحرمات بعد رؤية الكعبة، لكنه يقر بأنه لا يعرف أحداً فعل ذلك.

ويردد بتس ما قد يكون سمعه من أن الله يرسل رخات من المطر لغسل مناطق ذبح الأضاحي، كما يرسل الملائكة لتحمل الجمرات التي رمى بها المسلمون رمز الشيطان، ويعيدونها إلى أماكنها قبل موسم الحج التالي، "لكنني متأكد أنني رأيت الحصوات التي رجمت في الموسم السابق ملقاة مكانها على الأرض عند الأعمدة التي ترمز إلى الشيطان".

وبعد عودة الحجاج إلى مكة يبقون هناك زهاء عشرة أيام، حيث تعقد سوق كبيرة تباع فيها كل بضائع الهند، كما تباع فيها أحجار كريمة للخواتم والأساور المجلوبة من اليمن، وكذلك بضائع الصين، والمسك وغيرها من الأشياء الغريبة، إنه وقت الشراء، بعد انتهاء الطقوس. وينشغل كل حاج بشراء كفن، وهو قطعة كتان رقيقة ليكفنه بها أهله بعد موته، ويحرص الحجاج على غمس هذه الأكفان في ماء زمزم ليطهرنها بالماء المقدس.

وقبل مغادرة مكة لابد من طواف الوداع، وعندئذ تفيض عيون الحجاج بالدمع، إذ يلاحظ بتس أن الحجاج يكونون حقيقة غير راغبين في مفارقة بيت الله الحرام، فيترددون على ماء زمزم ويشربون منه حتى الارتواء، ويتراجعون إلى أبواب الخروج ووجوههم صوب الكعبة في وداع مؤثر، فمن غير اللائق أن يولوا ظهورهم لبيت الله عند الوداع.

ولاحظ بتس إن المصلين في المسجد الحرام حين يرغبون في الراحة يتمددون لبعض الوقت بين صلاة المغرب أو بعد صلاة العشاء، شريطة ألا تكون أقدامهم في اتجاه الكعبة، لأن هذا عمل غير وقور، كما أخبره أحد الحجاج الأتراك. كما لاحظ أن حول المسجد مغاربة كثيرون يبيعون نماذج مصغرة للمسجد الحرام، أو يقدمون خدمات للحجاج. كما يوجد عدد من الأفندية يقرأون القرآن وهم جلوس على مقاعد مرتفعة، ويفعل الشيء نفسه بعض الحجاج المتعلمين أثناء إقامتهم بمكة.

لاحظ بتس كذلك أن المصلين من الأحناف يتجمعون في فترات ما بين الصلوات، ويجلسون متربعين في حلقات، ويبلغ عدد من بالحلقة ما بين عشرين وثلاثين فردا، وبين أيديهم زوجان من المسابح الضخمة جداً، كل حبة من حباتها في حجم قبضة اليد، ويمررون حبات المسبحة بينهم الواحد تلو الأخر، والحبة تلو الحبة، وهم يرددون عبارات دينية "وقد انخرطت معهم في هذه اللعبة (هكذا يقول إنها لعبة) التي تسبب بهجة للأطفال". وأشار بتس إلى الدراويش الذين يتكسبون من وراء إحراق البخور أمام الجالسين في المسجد، وهم يمرون بين صفوف المصلين في هدوء، بينما يخطب الإمام أيام الجمعة.

لقد كان بتس يرصد كل شيء، حتى مظاهر الفساد والخروج على المألوف، وهو ما يحدث في كل المجتمعات البشرية. وفي ختام زيارته لمكة قال بتس معبرا عن مدى صدقه: "رويت ما رويت لك صادقاً أميناً وأتحدى العالم أن يتهمني أحد بالكذب". ويتضح ذلك من عنوان كتابه الذي وضع فيه تفاصيل رحلته، وهو:

A faithful Account of the Religion and Manners of the Mahometans، and Pilgrimage to Macca، and a Description of Medina.

لقد قال بتس كلمته، وكان واثقا مما قال، ومعلنا تحديه للعالم، ومعتبرا أن ما قاله هو الحقيقة. وبصرف النظر عن مدى صحة ما قال، فما قاله صحيح من وجهة نظره، لأن لكل منا حقيقته، أو رؤيته، ولكن هذه الرؤية أو الحقيقة ليست أكثر من لقطة من لقطات الواقع الذى عاشه

ولم يدركه. ومن هنا يجب النظر إلى كتابات الرحالة بحذر شديد وبمنهج النقد التاريخي، مع إجراء كافة أشكال المقارنة مع مصادر المعلومـــات الأخرى، من وثائق ومخطوطات وغيرها.

III

الرحلات الأسبانية والبرتغالية المبكرة

في فارس

في القرنين السادس عشر والسابع عشر

III

الرحلات الأسبانية والبرتغالية المبكرة

في فارس[1]

في القرنين السادس عشر والسابع عشر

مقدمة

في عام ١٥٠٦ شرع كل من ترســتاو دا كنهــا Tristão da Cunha وأفونسو دالبوكيرك Affonso Dalbuquerque في تولي أمر قيادة أسطول (برتغالي) مكون من ١٦ سفينة متوجهين لتحقيق مزيد من الاكتشافات الجغرافية في الشرق. وفي جزيرة سوقطرى، حيث أنــشئت قلعة لتأمين سلامة القوة البحرية البرتغالية، التي كانت تــستعد لفــرض حصار على البحر الأحمر، قرر دالبوكيرك أن يترك داكنها مع خمــس سفن ليشن هو الحرب على هرمز، حاملا تعليمات سرية بأنه ســيكون خلفا لــ ألميدا Almeida، الذي كان يعمل نائبا للملك في الهنــد بعــد انتهاء مدته (وبالفعل صار بعد ذلك ثاني نائب للملك في الهنــد عــام

[1] هذا الفصل ترجمة لمقال:
Sir Arnold T. Wilson ," Early Spanish and Portuguese Travellers in Persia", Asiatic Rreview, vol. 23 (1927).

١٥٠٩). وفي طريقه أخضع عددا من المدن على الساحل العربي، بما في ذلك مسقط، التي أحرقها دون مبرر.

ولدى وصوله إلى رأس مسندم، تلقى ألبوكيرك أنباء مفادها أن ملك هرمز كان على علم بوصوله، وأنه أعد أسطولا كبيرا لمقاتلته، كما أعد في المدينة جنودا كثيرين وذخائر حربية. ولاختصار الرحلة والوصول بحذر أطل الأسطول على هرمز وعلى جزيرة لاراك Larak وعلى جزيرة قشم التي كانت على مرمى البصر. وعرض ألبوكيرك شروطا قاسية للسلام مع ملك هرمز، بينما كانت الاستعدادات من كلا الجانبين قائمة لبدء المناوشات العسكرية.

أحاطت السفن البرتغالية بتجمع سفن هرمز في الميناء إحاطة السوار بالمعصم، على شكل شبه دائرة، لكي تمنعها من الخروج إلى البحر المفتوح. وبهذه الطريقة تم تدمير قوة هرمز المدافعة تدميرا تاما بعد صدام استمر ثماني ساعات، غرقت بعدها كامل القوة البحرية لهرمز، وقتل كثير من الناس. بعدئذ نزل ألبوكيرك المنتصر بقواته إلى البر وأشعل النار في أطراف المدينة، ثم بدأت عملية البحث عن السلام. وبعد مناقشات اُتفق على مبلغ من المال غرامة فورية تدفعها هرمز، وعلى ضريبة سنوية، ثم طلب البرتغاليون موقعا لإنشاء حصن عسكري.

وعند هذه المرحلة من النصر البرتغالي الساحق، تكشف الشقاق وظهرت الخيانة بين قادة ألبوكيرك، مما أضعف موقفه، وتجرأ عليه أعداؤه؛ فقد اضطر إلى التخلي عن إنشاء الحصن الذي كان سيمكنه من

إخضاع الوطنيين الفرس إخضاعا تاما. ولكي تكتمل الطامة، تركه ثلاثة من قواده وأبحروا بسفنهم إلى الهند. وبثلاثة سفن فقط بقيت معه، اضطر ألبوكيرك إلى أن يتخلى عن منصبه، وأبحر عائدا إلى سوقطرى حيث قضى الشتاء هناك في إصلاح سفنه.

وفي العام التالي (١٥٠٧) وبأسطول بحري قوي وصله من البرتغال، توجه ألبوكيرك مرة أخرى نحو هرمز وحاصر سواحلها، ولكن ظروفا مضادة أجبرته للمرة الثانية على أن يتخلى عن خططه في استكمال عملياته ضد هرمز. وتوجه إلى الهند في عام ١٥٠٨ حيث أصبح حاكما عليها (عام ١٥٠٩). ولم يكن في وسعه قبل عام ١٥١٥ أن يجد فرصة للعودة بقوة قادرة على إخضاع مملكة هرمز لسيطرته، عندئذ حصل على أحد موقعين كان يعتبرهما صمام الأمان للإمبراطورية البرتغالية في الشرق.

مؤرخ هذه الإنجازات هو براز Braz ابن ألبوكيرك، الذي أطلق على نفسه اسم أفونسو Afonso بعد وفاة أبيه، بناء على رغبة الملك دوم مانويل Dom Manuel... ولد براز (أفونسو) بالقرب من ألهندرا Alhandra على ضفاف نهر تاجوس Tagus في سنة ١٥٠٠. جمع أفونسو مشاهداته المشهورة "Commentaries" التي قسمها تقسيما زمنيا إلى أربعة أجزاء ... ونشرت بادئ ذي بدء في لشبونة Lisboa سنة ١٥٥٧. وقد غطت "المشاهدات" "Commentaries" كل فترة نشاط ألبوكيرك وإنجازاته، مثل سجل دخول هرمز وجزر أخرى في الخليج الفارسي (العربي)، التي يمكن الوقوف عليها في الجزأين الأول والثالث. وجميعها مأخوذة عن مراسلات أبيه.

أكد الاستيلاء على هرمز على وجود مشاعر مختلفة لدى البرتغاليين، وسرعان ما أصبح مصدرا للتصادم بينهم وبين الفرس، الذين اعتبروهم دخلاء بغير شك. وحوالي عام ١٥٢٠ رأى دوارت دي منزس Duarte de Menezes حاكم الهند البرتغالي وقتئذ، أن من المناسب أن يرسل سفارة إلى البلاط الفارسي بشأن هرمز، حيث التقى البرتغاليون الحاكم المحلي بترحاب.

وفيما يلي سنعرض لسبعة من الرحالة الذين جابوا بلاد فارس، ووصفوا لنا مشاهداتهم النادرة في ذلك الوقت المبكر من التاريخ الحديث، وهم:

١. أنطونيو تنريرو
٢. بدرو تيكسيرا
٣. أنطونيو دي جوفي
٤. فرير نيقولاس
٥. دون جوان
٦. فيجورو دون جارسيا
٧. دون بدرو سباستيانو كوبرو

1

أنطونيو تنريرو

الدبلوماسي البرتغالي المرتحل

Antonio Tenrreyro

كان بلتازار دي بيسو Balthazar de Pessoe هو السفير الذي وقع عليه الاختيار، حيث اصطحب معه أنطونيو تنريرو Antonio Tenrreyro البرتغالي الذي كتب قصة هذه البعثة. ارتحل الرجلان من جوا Goa إلى جمبرون (التي عرفت فيما بعد باسم بندر عباس) وهي مدينة العشش أو الأكواخ، ثم تقدما بعد ذلك على طريق لار Lar، شيراز، أصفهان، كاشان، قم، السلطانية إلى تبريز، التي كانت المقر الرئيس للإمبراطورية الفارسية. كان الشاه إسماعيل قد نصب معسكره على هضبة واسعة جهة الشمال، وإلى هناك ارتحل السفير ورفيقه بخطى بطيئة. ولدى وصولهم إلى المعسكر، أُستقبلا استقبالا طيبا من جانب الشاه.

وبعد عدة أيام قضوها في احتفالات، توجه البلاط [الشاه ورجاله] إلى الشمال على شواطئ بحر قزوين، حيث أقام في أرنبيل. لم يسجل تنريرو Tenrreyro طبيعة المفاوضات التي جرت بين السفير بلتازار دي بيسو والشاه، ولكنه ذكر فقط أنه في أحد الأيام وصل رسول مجهول وحذرهما ألا يضيعا الوقت وأن يرحلا؛ لأنه من المتوقع وفاة الشاه خلال

ساعات، وبالطبع كانت لديهما مخاوف قوية من إساءة معاملتهما أو ربما اغتيالهما، لأن الفوضى التي كانت تعيشها فارس عادة ما تفرز مثل تلك الأحداث. للأسباب السابقة توجه الرجلان إلى تبريز، حيث أعلنت وفاة [الشاه] الصفوي (١٥٢٣). ومن هناك عاد السفير (بلتزار دي بيسو) إلى معسكر الحاكم الجديد ولم نعد نراه.

التحق تنريرو Tenrreyro (الذي وجد نفسه وحيدا) بجماعة من المسيحيين الأرمن متوجهين إلى الأماكن المقدسة (فلسطين). وما أن وصل تنريرو إلى ديار بكر حتى شك المسئولون الأتراك (العثمانيون) فيه، فقد كان الأتراك على علم بأن الحكومة البرتغالية كانت ترسل مدافع وذخيرة لمساعدة الفرس ضدهم، وهكذا (دفع تنريرو ثمن موقف بلاده) ووجد نفسه سجينا؛ وفي ذلك الوقت كان مسئول تركي يستعد للسفر إلى القاهرة، حيث كلف رسميا بنقل تنريرو إليها. كان الطريق الذي سلكه تنريرو إلى القاهرة يمر عبر أرفا Urfa وحلب وحماة ودمشق ورام الله وغزة.

وما أن وصل تنريرو إلى القاهرة حتى وجد نفسه مهددا بفصل رأسه عن جسده، وفي النهاية أخلي سبيله بجيوب خاوية (أي أنه اشترى حريته). لقد كان هدفه من نيل حريته هو العودة إلى هرمز من جديد. ومن الإسكندرية بمصر ركب قاصدا قبرص وحلب، وبعد عدة شهور من الترحال البطيء، أخذ طريق الفرات ووصل إلى البصرة، حيث وجد وسيلة سهلة نقلته إلى هرمز.

مكث تتريرو في هرمز مدة خمس أو ست سنوات، في نهايتها أرسله الحاكم البرتغالي في مهمة إلى البرتغال. كان تتريرو مزودا بخطاب إلى ملك [حاكم] البصرة، لتسهيل أمر عبوره البلاد، وبعد كثير من الصعاب نجح تتريرو في الوصول إلى حلب بصحبة مرشد. لقد ارتحل لمدة اثنين وعشرين يوما، دون أن يجد ماء إلا في أربع مناسبات، ودون أن يلتقي برجال أو نساء.

وفي النهاية وصل تتريرو إلى مكان يدعى كوكانا Cocana، حيث التحق بقافلة صغيرة كانت متجهة إلى حلب. ومن طرابلس ركب سفينة رتوجه إلى إيطاليا ثم إلى البرتغال. لعل تتريرو يعتبر واحدا من الرحالة الإسبان والبرتغاليين الأوائل الذين قطعوا مشوارا طويلا في الارتحال عبر فارس في مهام دبلوماسية. وعن رحلاته ومهامه الرسمية لا يعتقد السير أرنولد ولسن (كاتب هذا المقال) أن شيئا قد كتب عنه في الإنجليزية.

وهكذا تجول تتريرو في المنطقة المعروفة الآن بالشرق الأوسط، أو بالشرق الأدنى، أو بالمشرق الإسلامي، مر فيها بالعراق وسوريا ومصر، وكانت جميعها قد دخلت تحت الحكم العثماني. ثم رحل إلى إيطاليا والبرتغال. وتبقى مهام هذا الرجل ودوره خلال رحلاته موضوعا مثيرا للكتابة التاريخية، التي تكشف عن الطموحات المبكرة للبرتغاليين في المشرق الإسلامي.

2

بدرو تيكسيرا

المؤرخ البرتغالي المرتحل

Pedro Teixeira

بدرو تيكسيرا مؤرخ ورحالة. ولد حوالي عام ١٥٧٠، ولكننا لا نعرف مكان ميلاده ولا مكان وتاريخ وفاته. هو ينتمي إلى إحدى العائلات البرتغالية اليهودية، التي أقر ديانتها سرا. ومع أنه ولد لأبوين يهوديين أقاما على الأغلب في لشبونة Lisboa، إلا أنه لم يتعلم أصول العقيدة اليهودية. وهو نفسه لم يقل لنا شيئا عن حياته المبكرة، وإن كان قد تعلم التاريخ في شبابه. وكل ما يمكن أن نعرفه حين نقرأ عمله الوحيد الذي كتبه، هو أنه كان مولعا بالترحال، وكان راغبا في الاشتغال بتاريخ فارس، وأنه ارتحل في حياته المبكرة إلى آسيا، حيث كان كثير من مواطنيه يشغلون مراكز مهمة. أقام لعدة سنوات في فارس، وخاصة في جزيرة هرمز، حين كان البرتغاليون لا يزالون سادة المنطقة دون منافس، مع أنهم استبقوا ما يشبه الملك هناك ممثلا في سيف الدين Saif ad Din. وهناك درس الفارسية بجد ومثابرة، لكي يصبح قادرا على ترجمة كتاب التاريخ الكبير لميرخوند عن ملوك فارس Mirkhond's Great History ؛ وعندئذ ذهب إلى الهند، حيث زار عدة مقاطعات، ووصل إلى ملقا Malacca في سنة ١٦٠٠.

وفي مايو من العام نفسه كان تيكسيرا راغبا في العـودة إلـى وطنه البرتغال، وذهب إلى هناك عـن طريـق سـومطرة Sumatra وبورنيو Borneo والفلبين، وبحر اليابان، ثم إلى خلـيج كاليفورنيـا. وحين نزل في ميناء أكابولكو Acapulco، سار عبر المكسيك في سنة ١٦٠١ واستقل سفينة من فيرا كروز Vera Cruz عبر بها الأطلنطي. وفي ٦ سبتمبر رست السفينة في سان لوكار San Lucar، وفي ٨ من الشهر نفسه وصل إلى إشبيلية Seville. وهكذا عـاد إلـى البرتغـال بطريقة الدوران حول الكرة الأرضية عن طريق الاتجاه شرقا لكي يوفي بوعده إلى أحد أصدقائه. وأخيرا، وفي ٨ أكتوبر وصل إلى لشبونة بعد قضاء سنة ونصف على خروجه من ملقا. وكانت حكايته خـلال هـذه الرحلة الطويلة مختصرة للغاية.

أما رحلة تيكسيرا الثانية التي وصفها بكثير من التفصيل، فكان السبب وراءها طبقا لكلماته، كما يلي: "عندما أبحرت من ملقـا كنـت تركت بعض المال مع بعض الأصدقاء لكي يرسـلوه إلـى البرتغـال بالطريقة العادية على السفن البرتغالية المسافرة من الهند، واضعا كامل الثقة بهم كما جرى في مناسبات سابقة. ولكن هذه العملية فشلت تمامـا وقررت العودة إلى الهند، وذلك آخر ما كنت أفكر فيه. ركبت الـسفينة في ٢٨ مارس ١٦٠٢، ولن أذكر ما جرى في هذه الرحلة. ووصلنا إلى جوا في ١٤ أكتوبر".

وما أن انتهى تيكسيرا من مهمته حتى غادر جـوا Goa فـي فبراير ١٦٠٤، وأبحر في طقس مناسب، فزار سواحل شـبه الجزيـرة العربية، حيث توقفت السفينة في سيفا Sifa وهو ميناء صغير، عندئـذ

توجه إلى مسقط، ومن هناك إلى هرمز، فوصلها بعد شهر من مغادرته جوا. وبعد شهر أقامه في هرمز استقل مركبا إلى البصرة. لقد وصف تيكسيرا تجربته في السفر عبر الخليج بين اليابسة وجزيرة قشم وصفا جيدا. فهو يقول: على طول الساحل أبحرنا لمدة ٣٥ يوما، واجهنا خلالها الكثير من المشاكل والصعاب؛ فقد تناقصت أمتعتنا، ولم يكن في الإمكان إعادة تزويد أنفسنا بما نحتاج إليه هناك؛ لأن ذلك الساحل كان مضطربا بسبب عمليات التخريب المتعمدة التي أحدثتها السفن البرتغالية (fustas) التي كانت تبحر عادة في تلك المنطقة.

وحينما وصلنا إلى شيلو Chilao بالقرب من بردستان Verdostam (Bardistan)[1] هناك نشطت الرياح المعاكسة واستمرت لبعض الوقت. وما أن فقدنا الهلب والكابل، على أي حال، حتى أمر القائد بأن نبتعد عن الشاطئ في اتجاه هرمز. وخلال أربعة أيام قطعنا ثمانين فرسخا بحريا (أي حوالي ٢٤٠ ميل) بعد كد وعناء لمدة خمسة وثلاثين يوما. وفي طريق عودتنا رأينا عددا من سفن القراصنة (أو الطرادات)، وهي عند ابن بطوطة السفن الكبيرة، أما الكتاب الأوربيون فيعتبرون هذه الطرادات قوارب صغيرة، تعمل بالقرب من الشاطئ. على كل حال هي مراكب شراعية لا تغيب عن هذه البحار. لذلك فإن السفن التجارية المبحرة من هرمز تستخدم عادة سفن الحراسة البرتغالية. وأخيرا وصلنا إلى هرمز مساء يوم الجمعة ٢١ مايو (١٦٠٤) ورسونا

---

[1] ربما تقع "شيلو" على بعد أربعة أميال في اتجاه الغرب من "طاهري" Tahiri طبقا لما ورد في كتاب: *The Persian Gulf Pilot*

في الميناء الغربي بعد تسعة وثلاثين يوما قضيناها بعيدا، متعبين للغاية ومتألمين.

لم يعد هناك ما يثبط العزم، وبدأ رحالتنا تيكسيرا ينطلق من هرمز مرة أخرى في يونيه من العام نفسه، وبعد إبحار لمدة شهر ونصف، وصل إلى شط العرب والبصرة، التي قدم لها وصفا مثيرا. ومن هناك لحق بقافلة عبر الصحراء تسلك طريق مشهد (النجف) فوصل بغداد في الوقت الذي كانت فيه الحرب قائمة بين الأتراك (العثمانيين) والفرس. ومن هناك عبر بلاد ما بين النهرين في اتجاه حلب عن طريق أنا Ana فوصل حلب في فبراير ١٦٠٥، ثم استقل إحدى سفن البنادقة من الإسكندرونة مارا بقبرص وزانتي Zante إلى البندقية Venice، فزار إيطاليا، وعبر جبال الألب إلى فرنسا، فوصل أنتويرب Antwerp التي كانت وقتئذ مدينة إسبانية. وهناك في أنتويرب، يقول رحالتنا تيكسيرا "لقد استقر بي المطاف في هذا البلد، وهذه القصة القصيرة لرحلتي كان يمكن أن تكون أطول لو لم أختصرها بعناية".

الكتاب الذي ندين به لتيكسيرا يتكون من ثلاثة أقسام متميزة:

أ. تاريخ فارس منذ أقدم العصور إلى حكم عباس الكبير.

ب. تاريخ ملوك هرمز.

ج. خلاصة رحلته الأخيرة، التي تعتبر الجزء المهم فيه، لأنه يقدم رؤية واقعية ومعرفية على قدم وساق في التاريخ والسياسة الجغرافية.

لقد جرت أحداث رحلة تيكسيرا حينما كانت إسبانيا والبرتغال تكونان معا مملكة واحدة منذ عهد فيليب الثاني، الذي دخل لشبونة وضم البرتغال إلى مملكته بعد المعارك الأخيرة في المغرب التي بدأت منذ سنة ١٥٨٠ واستمرت لمدة ستين سنة.

3

أنطونيو دي جوفي

المبشر والرحالة البرتغالي

Antonio de Gouvea

أنطونيو دي جوفي، الرحالة البرتغالي الذي كان مبشرا ومبعوثا إلى فارس، ولد في بيجا Beja عام ١٥٧٥، مارس حياة دينية بناء على توجيهات نُساك القديس أوغسطين Hermits of St. Augustine، وما أن انتهى من دراساته حتى ابتعث إلى جوا Goa في عام ١٥٩٧، حيث عمل هناك لبعض الوقت أستاذا للدراسات اللاهوتية. وبناء على تشجيع فيليب الثالث Philip III الذي كان كوالده راغبا بشدة في نشر المذهب الكاثوليكي في الشرق، أرسل سالدانها Saldanha نائب الملك في الهند بعثة تتكون من عدد من الآباء النساك هم: جيروم دي لا كروا Jerome de la Croix وكريستوف دي سانت-إسبري Christophe de Saint-Esprit ودي جوفي de Gouvea من جوا، إلى بلاط الشاه عباس في فارس.

ارتحلت البعثة التي بدت ذات أغراض اقتصادية وسياسية ودينية (حين كانت إسبانيا والبرتغال تكونان معا مملكة واحدة) برا فيما يبدو إلى مشهد، حيث كان الشاه معسكرا في ذلك الوقت هناك في طريق عودته من بلخ إلى أصفهان بعد حملته على خراسان. أرسل الشاه

مجموعة من كبار ضباطه للترحيب بالمبعوثين، على رأسهم روبرت شيرلي Robert Shirley. وعلى الفور أُستقبلوا في بلاط الشاه، حيث قدم جيروم دي لاكروا Jerome de la Croix خطابا من ملك إسبانيا ومعه هدايا من نائب الملك وهدية من رئيس أساقفة الهند، وهي عبارة عن مجلد مغلف تغليفا جميلا عن *حياة عيسى المسيح* (*Life of Jesus Christ*).

عبر الشاه عن ترحيبه الشديد بالبعثة إلى حد أنه سمح بإنشاء دير للرهبان و كنيسة في أصفهان، وتحمل تكلفة عمل ديكورات الحوائط التي زينت بالفسيفساء الأزرق والمذهب (المنمنمات). وتلبية للمطلب الخاص بالحصول على تصريح لتكوين مؤسسات تجارية في فارس، قبل الشاه الفكرة بشرط أن تساعده إسبانيا في تحجيم القوة العثمانية في آسيا. وبوضع هذا الأمر في الاعتبار، أرسل الشاه عباس بعد ذلك مباشرة سفارة ممثلة في شخص الله فردي بج Allah Verdi Beg بصحبة دي جوفى de Gouvea إلي الملك فيليب الثالث، ورحل الرجلان إلي إسبانيا عن طريق هرمز. لم يهمل وفد الشاه أي خطوة لإغراء فيليب بأن يتبنى وجهة نظر الشاه عباس بشأن العثمانيين، ولكن القوات الإسبانيا كانت تستخدم لمدة عشرين عاما في محاولة استرداد المقاطعات الهولندية المفقودة، لذلك لم تسفر هذه المفاوضات عن شيء.

وفي سنة ١٦١٢ تلقى دي جوفي أوامر بالعودة إلى فارس لتجديد المفاوضات التي توقفت لعدة سنوات. وما أن وصل إلى فارس حتى التمس مقابلة الشاه، ولكن الشاه عباس كان غير راغب في قبول أي عذر جاء به دي جوفي من ملك إسبانيا، وألقى به في السجن.

وبعد بضعة شهور نجح دي جوفي في الهروب، وغادر فارس سالكا طرقا غير مطروقة. وبعد صعوبات كثيرة وصل إلى الإسكندرونة، ثم عاد للمرة الثانية إلى أوربا. وفي البحر دفعت الرياح المعاكسة بمركبه إلى ساحل سردينيا حيث قبض عليه القراصنة وقادوه إلى الجزائر، وفيها ظل حبيسا إلى أن افتدي سنة ١٦٢٠، وعاد إلى مدريد. وعين أسقفا في سيرين Bishop of Cyrene وبعد أن رفض بعثة مهمة إلى أوران Oran استقال وعاش حياة الرهبنة، ومات في عام ١٦٢٨ عن عمر يناهز السابعة والخمسين.

ترك لنا دي جوفي حوالي ستة أعمال، معظمها كتب حين كان في جواء، في إحداها قدم وصفا قيما جدا للبعثات المختلفة إلى البلاط الفارسي الذي زاره. وفي عمل آخر تناول بالتفصيل حروب الشاه عباس الكبير مع العثمانيين. وفي واحد من أواخر أعماله قدم تقويما جيدا للمغامرات التي قام بها أوجستنيان فرير البرتغالي Augustinian Friar المسمى نقولاس ميلو Nicolas Melo الذي وصل أصفهان في يونيه ١٥٩٩ حين كان في طريقه من مانيلا إلى روما.

4

فرير نيقولاس

Friar Nicolas

قدم إيكومو فابا البندقي Iacomo Faba فرير نيقـولاس إلـى الشاه عباس، الذي استقبله استقبالا طيبا، وسأله العديد من الأسئلة عـن أسلوب حياته وعن عقيدته. وبهذا اللقاء تهيأت الفرصة أمام فرير ليبقى في بلاط الشاه عباس إذا ما رغب في ذلك، ولكنه كان حريصا على أن يصل إلى روما بأسرع ما يمكن، فاهتم بالبحث عن الوسيلة التي تقـوده لاستكمال مشواره إلى روما.

في الوقت نفسه كان سير أنتوني شـيرلي Anthony Shirley يستعد بناء على تكليف من الشاه عباس الكبير للقيام بهمة إلى كل مـن الإمبراطور رودلف، والبابا، وملك إسبانيا، وجمهورية البندقية. تمنـى فرير نقولاس لو أن هذه المهمة كانت آمنة، ليـذهب بـصحبة رجـال مسيحيين، عن أن يرحل وحده عبر الأراضي العثمانية، ولذلك حـصل على تصريح من الشاه بأن يذهب في صحبة أنتوني شيرلي ومجموعته.

ولما كان فرير نيقولاس قد أعلن عن اعتزامه السفر مقدما، فقد زوده الشاه برسائل إلى البابا وإلى ملك إسبانيا، بهدف تهيئتهما لأن يكونا مستعدين لاستقبال سفرائه بروح طيبة. ولكن شيرلي كان يرى أن فرير إذا تقدمه في هذه المهمة سيأخذ كل الفائدة التي كان يرغب هـو نفـسه

(شيرلي) في أن يحصل عليها، عن طريق البشرى الطيبة التي يحملها معه إلى كل من البابا وملك إسبانيا، ومع أنه رحب بفرير ظاهريا، إلا أنه كان مصمما على أن يأخذ خطاباته أو حتى حياته to take his letters and even his life أثناء الرحلة (طبقا لكلمات جوفي).

كتب دي جوفي أنه في إطار هذا التفكير التآمري، وبينما كانت البعثة صاعدة نهر الفولجا، أخذ شيرلي معه فرير نقولاس للتمشية على ضفة النهر، وحينما غابا عن الأنظار، حاول شيرلي أن ينفذ نواياه السيئة بدفع نقولاس المسكين في النهر وإغراقه. ولحسن حظ فرير نقولاس جاء أحد أفراد البعثة وأنقذه في آخر لحظة. بعد ذلك واصلت البعثة مسيرتها ولكن فرير نقولاس كان يأخذ حذره في كل خطوة يخطوها مع شيرلي.

ولدى وصول البعثة إلى موسكو اشتكى شيرلي الواسع الحيلة غريمه فرير نقولاس إلى أساقفة روثنيان Ruthenian لممارسة الطقوس الدينية، وهو ما أسفر عن سجنه لمدة عشر سنوات حيث عذب ومات. (وبذلك تهيأت الفرصة لشيرلي أن يصل إلى إيطاليا وإسبانيا بدون فرير نيقولاس. ونجحت المؤامرة. ويحكي لنا دون جوان الفارسي بقية مؤامرات شيرلي على النحو الذي سنراه).

5

دون جوان الفارسي

Don Juan of Persia

بالرغم من أنه لم يكن إسبانيا ولا برتغاليا وإنما كان فارسيا، إلا أن تقاريره كتبت بالإسبانية عن رحلته من فارس إلى أوربا، باعتباره كان أحد أعضاء بعثة شيرلي، وكانت على درجة عالية من الأهمية. فبعد وصوله إلى إسبانيا تخلى دون جوان مع اثنين من رفاقه عن عقيدتهم الإسلامية واعتنقوا المسيحية، ولذلك فقد قضى بقية حياته في أوربا لأنه كان من الخطر على حياته أن يعود إلى فارس، فقد كان في كل الأحوال سيقتل لارتداده عن الإسلام، وهو المصير الذي لاقاه أحد زملائه الذين كانوا حريصين على العودة.

لقد قدم لنا دون جوان تقارير مختلفة عن رحلته مع بعثة شيرلي، فقد أكد أن شيرلي حاول عدة مرات أن يغتال فرير على ظهر السفينة التي استقلوها صعودا في نهر الفولجا، ليس للسبب الذي قدمه جوفي من قبل، ولكن لأن شيرلي، الذي كان فرير قد أقرضه ألف إسكودس escudos (عملة) و ٩٠ قطعة ألماس صغيرة، قد تضايق حين طلب منه فرير أن يعيد إليه المال والألماس. وأضاف دون جوان: أنه بعد بضعة أشهر، حينما كانت البعثة على وشك أن تغادر موسكو، لم يعثر على

فرير وخلص دون جوان إلى القول: بأننا كنا نشك أن دون أنطونيو كان وراء اختفائه (وهذا تفسير آخر لاختفاء فرير نيقولاس).

وفي إشبيلية سنة ١٦٢٦ نشر دون جوان ما يفيد بأن المسيحيين في فارس وأرمينيا يعانون من سوء المعاملة. وطبقًا لهذا التقرير كان الشاه عباس قد تخلى عن موقفه المتسامح تجاه المسيحيين؛ ففي سنة ١٦٢١ أمر باتخاذ أشد الإجراءات ضدهم. وبناء على تعليمات الشاه أغلقت كنيسة أصفهان والدير الذي أنشئ هناك، ورجم كثير من الآباء المسيحيين الفرس حتى الموت، وسجن البعض الآخر، وكان لا يزال هناك من يتوقعون المصير نفسه. وبعد أن ارتحل الشاه عباس في حملة لاسترداد قندهار من يدي إمبراطور المغول (جاهنجير Jahangir) استطاع رئيس الدير ورفاقه الهرب من محبسهم برشوة الحراس، وأعادوا فتح الكنيسة.

6

فيجورو – دون جارسيا دي سيلفا

Figuroa- Don Garcias de Silva

كان فيجورو آخر سفير في سلسلة طويلة من السفراء الذين أرسلتهم إسبانيا في محاولة لإنشاء علاقات دبلوماسية وتجارية مع فارس. كان عباس الأكبر متشوقا لإجراء ترتيبات مع بعض الدول الأوربية مقابل إنهاء حالة الاحتكار الخاصة بتجارة الحرير في بلاده. وفي خطاب إلى فيليب الثالث ملك إسبانيا عبر عباس الأكبر عن رغبته في أن ترسل إسبانيا بعض الرجال الإسبان المرموقين، بدلا من أن ترسل أولئك الرهبان البسطاء كسفراء، لأن ذلك سيكون فيه خدمة لله ولجلالة ملك إسبانيا. وفي رده على هذا الاقتراح العام قرر الملك فيليب أن يرسل سفارة إلى عباس الأكبر، مع أن البعثة كانت في الواقع لديها أهداف أوسع.

كان هدف السفارة مزدوجا وهو متابعة المصالح المتعددة للتاجين المستقلين في إسبانيا والبرتغال، اللذان اتحدا منذ عام ١٥٨٠ في شخص ملك إسبانيا. كان هدف الإسبان الأول والرئيس هو استمرار تشجيع الخلاف الفارسي التركي، من أجل إبقاء السلطان العثماني مشغولا، وتغيير وجهته بعيدا عن أوربا. أما الهدف الثاني فقد كان برتغاليا ويعنى برعاية المستعمرات البرتغالية في الخليج الفارسي، التي بدأ القلق ينشأ حول مستقبلها.

غادر فيجورو إسبانيا في بداية عام ١٦١٤ فوصل إلى جوا في أكتوبر من العام نفسه. كانت الشئون البرتغالية هناك حتى ذلك الوقت تمر بظروف حرجة. فقد انتزع الشاه عباس من ملك هرمز جزر قشم والبحرين وحاصر قلعة جمبرون، التي أمنت له مرور قوافل التجارة الهندية إلى داخل فارس. وعلى الرغم من هذه التطورات العاجلة فإن البرتغاليين في جوا، الذين كانوا غيورين من رؤيتهم إسباني مزودا بصلاحيات سفير، وضعوا ألف عقبة في طريق رحيل فيجورو من ذلك المكان، واحتجزوا لسبب أو لآخر المركب التي كان مقدرا لها أن تحمله والمصاريف الضرورية لنفقاته.

وفي مارس ١٦١٧ أصبح في وسع السفير المحتجز، الذي ضاق ذرعا بالقيود المفروضة عليه، أن يحصل على تصريح بأن يستقل مركبا تجارية صغيرة، حيث وصل بعد رحلة استمرت خمسة أسابيع إلى مسقط ومنها إلى هرمز. وهنا في هرمز واجه فيجورو مشاكل مماثلة لتلك التي واجهها في جوا، ولم يكن في إمكانه حتى نهاية الصيف أن يتقدم ويرحل في وضع ملائم عبر لار Lar حيث وصل إلى شيراز.

وهناك مكث في شيراز أربعة أشهر، إلى أن وصلت إليه موافقة الشاه، الذي لم يكن مرحبا تماما بمقابلته، ولذلك لم يسمح له بالقدوم إلى (فرح أباد) في مازندران، حيث كان ينزل هناك وقتئذ. وفي النهاية تلقى فيجورو الموافقة بأن يتقدم في اتجاه أصفهان حيث بقي هناك حتى مايو من عام ١٦١٨، حينما سمح له بالتقدم نحو قزوين Kazvin حيث كان بلاط الشاه. وبعد وصوله بيومين استقبله الشاه عدة مرات، ولكن نتائج هذه اللقاءات كانت محدودة، فقد كان الشاه يعد لحملة أخرى ضد الأتراك

العثمانيين، وعندئذ عاد فيجورو إلى أصـــفهان منتظـــرا نهايـــة تلـــك المصـادمات وعودة الشاه إلى عاصمته في عام ١٦١٩.

عندئذ بدأت المناقشات بجدية. فقد استقبل الشاه في حفاوة كلا من رسول الملك فيليب الثالث، وســفير المغــول العظـــيم Great Mogul وسفير خان بخارى، وسفير دوق موسكوفي العظيم Grand Duke of Muscovey وغيرهم. قدم فيجورو الخطاب الذي حملـــه مـــن ســـيده المهيب، الذي بين فيه رغبته في تجديد المفاوضات. وفي اللقاء الأخير، كشف فيجورو عن نواياه الحقيقية وطلب أن يتنازل الشاه إلى ملك إسبانيا عن الجزر والأماكن الساحلية التابعة لهرمز، والتـــي ســـبق أن أخـــذها الشاه؛ وفوق ذلك طلب من الشاه عباس ألا يسمح من الآن للإنجليـــز أو لرعايا أية دولة أخرى أن تتاجر في فارس. وبعبارة أخرى فإن احتكار التجارة الفارسية يجب أن يبقى شأنا من شئون جلالة الملك الكـــاثوليكي (الإسباني).

وفيما يتعلق بالمسألتين تلقى فيجورو ردا شافيا جدا بأن يعتبـــر مهمته انتهت وطلب منه الانصراف. بالإضافة إلى هذه النتيجة المخيبـــة للآمال، بدا السفير مكتئبا من المظهر الشخصي للشاه الشهير، معقبا بأنه لم يكن لديه أي مظهر من مظاهر العظمة يمكن أن يكون متوقعا لمثـــل هذا المنصب الجليل؛ كان طوله أقل من المتوسط، نحيف وضعيف، ذو أنف معقوف، وعينان حادتان لونهما أخضر، ووجهه كان كالمحروق من الشمس (مثل هذه الأوصاف يصعب أن توجد في الوثائق الرسمية، ومن هنا تأتي أهمية كتابات الرحالة).

عاد فيجورو إلى هرمز، وفي إبريل من العـــام التـــالي ١٦٢٠ استقل سفينة إلى جوا، فوصل الهند في ثلاثة أسابيع. ثم عاد نهائيا إلـــى إسبانيا عام ١٦٢٤. وعلينا أن نلاحظ أنه في الوقت نفسه أخذ الفـــرس هرمز بمساعدة الإنجليز (سنة ١٦٢٢) من البرتغاليين، وبـــذلك بـــدأت السيادة السياسية للبرتغاليين في فارس تتناقص.

يتضح مما رواه الرحالة هنا أن المؤامرات الدولية الخفية كانت وراء المواقف السياسية والعمليات العسكرية، وكان للرحالة دور رئيس في تنفيذ عمليات بلادهم العسكرية، وإنجاح خططهم السياسية.

7

دون بدرو سباستيانو كوبرو

Don Pedro Sebastiano Cubero

كوبرو قسيس رحالة غير معروف، ولد عام ١٦٤٥، بدأ رحلاته منذ الصغر، حمل لقبا له رنين هو: Apostolic Preacher of Asia أي "الواعظ الرسولي في آسيا"، وهو يدعي أنه أول رجل من بلاده يزور تلك الأقاليم.

انطلق كوبرو من موسكو بصحبة سفير روسي، كان في مهمة إلى بلاط شاه فارس. سافر بطريق ساراتوف Saratov، أستراخان Astrakhan، دربنت Derbent وأرمينيا Armenia، فوصلا في سنة ١٦٧٤ إلى قزوين، حيث كان الشاه سليمان يقيم. وعندما حضرا إلى الشاه، كما يقول كوبرو، أخذ كلا منهما اثنان من الحرس الفارسي الأقوياء من تحت إبطهما، وطرحاهما أرضا على بطنيهما، ووجههما إلى أسفل، جاعلين جبهة كل منهما تلمس الأرض، وهو موقف لم يتوقعاه ولم يقاوماه.

وعلى بعد عشرة أو اثنتي عشرة خطوة، كان هناك مظهر آخر من مظاهر الاحترام والتبجيل. بعده سمح لهما بأن يصلا إلى الصفوي [الشاه] وأن يسلماه خطاباتهما، التي كانت تهدف إلى جانب أشياء أخرى، إلى ضمان استمرار الحماية للمبشرين الرسوليين، التي كان قد اتفق عليها مع أسلافه. وبعد ذلك أعدت لهم وليمة كبيرة، كانت الأطباق فيها

من الذهب الخالص، موضوعة على الأرض. وعندما جلسوا، كما يقول كوبرو، مرت أمامهم أنواع من الحيوانات، وخاصة الخيول والجمال المنتقاة من أحسن الأنواع التي استعرضت في شكل متناسق، وهي مزينة بالحرير المحدد بالذهب والجواهر، في استعراض عجيب، مزينة بأحسن زينة، كما لو كانت في زفة أندلسية، وهنا انفجر الإسباني ضاحكا بطريقة لا تليق بمسئول حكومي. وحينما سئل عن السبب، أجاب بأن الحيوان موضع الاحتفال، شائع في أوربا ولا يعامل بمثل هذه الطريقة المحترمة.

ولدى مغادرته قزوين، لم يعد كوبرو إلى أوربا بالطريق نفسه الذي سلكه في الذهاب، ولكنه اتجه نحو أصفهان وشيراز ثم إلى هرمز، ومن هناك ارتحل بحرا إلى جوا. ثم ذهب إلى ملقا التي كانت واحدة من المقار الرئيسة للهولنديين، حيث إنه بعد فترة قصيرة قضاها في السجن، لمخالفته تعليمات الحكومة، استقل سفينة إلى مانلا، وعبر المحيط الهادي إلى المكسيك، ثم وصل إسبانيا بعد تسع سنوات من الغياب، وبذلك دار حول الأرض. ونشرت رحلته في كتاب لأول مرة عام ١٦٨٠ بمدريد.

IV

رحلة ولستد في عمان

J.R. Wellsted

عام ١٨٣٥

IV

رحلة ولستد في عمان [1]

J.R. Wellsted

عام ١٨٣٥

بلغت سلطنة مسقط وعمان أوج قوتها في النصف الأول من القرن ١٩، وهي الفترة التي حكم فيها السيد سعيد بن سلطان حتى وفاته في عام ١٨٥٦. خلال هذه الفترة كان ولستد الضابط البريطاني واحداً من أولئك الرحالة العسكريين برتبة ملازم أول، وليس من هؤلاء الرحالة الأكاديميين. ومع ذلك فقد ترك لنا في مجلدين تراثاً علمياً مفيداً، رغم مرور فترة طويلة تبلغ نحو قرن وثلاثة أرباع القرن من الزمان على رحلته.

وقد انتهى ولستد من إعداد كتابه الذي يتضمن رحلاته في شبه الجزيرة العربية في ديسمبر ١٨٣٧، ونشره لأول مرة في لندن عام ١٨٣٨، أي بعد انتهاء رحلاته بثلاثة أعوام تقريباً، ثم ترجم إلى الألمانية وصدر بعد خمسة أعوام في عام ١٨٤٢، ثم ظهر في طبعته الإنجليزية الأخيرة في عام ١٩٧٨ وهي

---

1) J.R. Wellsted، *Travels In Arabia*, (Graz- Austria, 1978)

الطبعة التي اعتمدنا عليها في إعداد هذا الفصل. وتعود قيمة هذا الكتاب إلى أهميته التاريخية والجغرافية والسياسية والثقافية التي تساعد في فهم الشخصية العربية. وقد وظفت الفصول التسعة الأولى منه فقط كنموذج للدراسة وليس بهدف الترجمة.

. وتأتي أهمية كتاب ولستد من أن كاتبه زار المناطق الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة العربية، في وقت كانت رحلات الأوربيين تكتشف غربي وجنوب غربي شبه الجزيرة العربية، حتى منتصف القرن التاسع عشر. إذ كان التركيز في تلك الفترة على منطقة الليفانت والحجاز واليمن. ولكن رحلة ولستد فتحت الباب على مصراعيه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أمام الرحالة الذين جابوا المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية. ولذلك تعتبر رحلات ولستد هذه نقطة تحول، بل نهاية لمرحلة وبداية لمرحلة أخرى جديدة، في تاريخ الكشف الجغرافي لقلب شبه الجزيرة العربية.

خطط ولستد للقيام برحلته إلى عمان في عام ١٨٣٥ بموافقة حكومة الهند البريطانية، ولقي اهتماماً خاصاً من حاكم بومباي، الذي زوده بخطابات إلى حاكم عمان وشيوخها، لتيسير مهمته حفاظاً على علاقات الود مع بريطانيا. وفي خريف العام نفسه بدأ رحلته البحرية من الهند في اتجاه مسقط، وبعد إثنى عشر يوماً وصلها في ٢١ نوفمبر، والتقى في اليوم التالي إمامها السيد سعيد بن سلطان، فقدم له كافة التسهيلات التي تعينه على

إنجاز رحلته في عمان انطلاقاً من صور على الساحل الجنوبي لعمان، ثم الانطلاق نحو الداخل عبر أراضي عمان، وصولاً إلى الدرعية في قلب نجد.

ولا يهدف هذا الفصل إلى سرد تفاصيل الرحلة، لأن ما سجله ولستد عن رحلته يتجاوز حدود هذا الفصل بعشرات الأضعاف، فقد سجل ولستد ذلك في مجلدين يبلغ عدد صفحاتهما ٩١٨ صفحة. ولكننا نسعى هنا إلى انتقاء بعض جوانب الرحلة التي تفيد في الكتابة التاريخية من الزوايا الاجتماعية والثقافية، وهي الجوانب التي تغفلها الوثائق الرسمية عادة. فالعادات والتقاليد، والجغرافيا والطبوغرافيا، تأتينا غالباً من خلال المشاهدة المباشرة. ورحلة ولستد تنقلنا إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر في عمان، فترسم لنا صورة جد مختلفة عن الصورة التي نراها في عمان اليوم، بعد ما أصابها من آثار الثروة النفطية، وما أحدثته هذه من تغييرات اقتصادية واجتماعية وثقافية.

فالوثائق الرسمية مثلاً لن تقدم لنا وصفاً كهذا الذي يقدمه ولستد حين يصف السيد سعيد بن سلطان، فيقول إنه وهو "في الثانية والخمسين فارع الطول، وجهه وضاح، يمتاز بأنفة وعزة، مجامل، بسيط بساطة البدو، يرتدي الزي نفسه الذي يرتديه شعبه، مع فارق الجودة في نوع القماش، له حرس يحيطون به دائماً، دون أن يكون ذلك مظهراً من مظاهر الأبهة. يكن مشاعر

طيبة تجاه الأوربيين، وخاصة الإنجليز منهم "، ولذلك - كما يعترف ولستد – فإن الإنجليز يعاملونه "بقدر أكبر من الصدق".

وقد تستوقفنا هذه العبارة لنتبين منها أن الوثائق الرسمية رغم أنها صادقة من حيث الشكل، إلا أنها قد لا تكون كذلك من حيث المضمون. وبالتالي فإن شهادة كهذه التي يبديها ولستد إنما تكشف عما قد يكون خفياً، أو توضح ما قد يكون غامضاً أو ملتوياً، وتؤكد على ما نذكّر به دائماً من أن مصادر الكتابة التاريخية يجب أن تكون متنوعة ومتعددة وشاملة بقدر الإمكان، ولا يجب أن نركن إلى مصدر واحد، أو نوع واحد من المصادر، أو جزء منها، دون الإلمام بما يحتويه الكل. ومن هنا تأتي قيمة الرحلات، وما يسجله الرحالة، ليعد من مصادر الكتابة التاريخية التي لا يجب إهمالها، مع التحفظ على أن بعض الرحالة قد يكونوا مبالغين أو منبهرين، أو متعاطفين، أو مناوئين، فكل هذا يجب أن يوضع في الاعتبار دائماً.

ويستطيع الرحالة أن يسجلوا مشاهداتهم التي ترتبط بانطباعاتهم ليؤكدوا على أن من سمع أو قرأ ليس كمن شاهد، ففي المشاهدة شيء من المشاركة أو المعايشة أو الحضور أو المعاصرة أو هذا كله.

وفي هذا السياق يقول ولستد "أرى أن أهم ما تمتاز به حكومة هذا الأمير (السيد) هو أنها لا تلجأ إلى التعسف مع مواطنيها، ولعلها تأخذ بالقانون من زاوية التسامح، الذي يقرب

بين الأطراف المختلفة". إن مثل هذا الأسلوب الذي يشد انتباهنا تجاه ما يقوله ولسند، الذي هوغريب عن المكان وثقافته، والغريب يكون دائماً قادراً على رصد الحقائق حول المجتمع الذي يقيم فيه، أقول إن هذا الأسلوب في الرصد إنما يعكس حقائق يصعب أن نجدها عند غير شهود العيان. وقد أدت موافقة (السيد) له على الارتحال داخل بلاده إلى ترحيب أهل البلاّد بهذا الزائر الغريب، الذي هو على غير دينهم وثقافتهم. وليست هذه قاعدة ثابتة تنطبق على كل شعب وكل زمان وكل مكان، فلولا حالة الرضا والقبول التي يلقاها الإمام عند شعبه، ما وجد ولسند هذا الترحيب من أهل عمان.

ولقد تهيأت لي شخصيا مثل هذه الفرصة في مطلع الألفية الثالثة كي أتجول بين أبناء قبيلة العوامر في دولة الإمارات العربية المتحدة، وأن ألتقي بعض من اقتربت أعمارهم من المائة عام، وقد بدوا لأول وهلة وكأنهم عازفون عن الكلام معي، إلى أن تأكدوا أنني مدعوم من مؤسسة رسمية تلقى عناية الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان (رئيس الإمارات وقتئذ) وعناية أبنائه الشيوخ، عند هذه اللحظة وجدت انفتاحاً غير مسبوق، وتواصل الحوار بيني وبين الشباب حول بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في حياة هذه القبيلة.

ويكشف ولسند عن معلومة رائعة، تفيد بأن "العرب لا يطلقون على سيد عمان الحالي لفظ إمام"، ويفسر ذلك بأن

للإمامة شروط، أولها: أن يكون منتخباً، وثانيها: أن يتمتع بمعارف فقهية تساعده على إلقاء خطبة أمام الشيوخ، الذين يقررون انتخابه. وبالتالي يصبح الشرط الثاني لازماً لتحقيق الشرط الأول. ولما كان السيد سعيد لم يحقق الشرط الثاني، الذي يكفل له لقب الإمامة، فإن مواطنيه لا يعرفونه إماماً، وإنما يعرفونه سيداً.

يصف ولستد مسقط التي يسميها الإدريسي "مسكة"، وربما كانت هي "موشكة" الميناء الحضرمي الذي وصفه بطليموس، أو الذي ذكره أريان في: دليل الملاحة في البحر الأحمر. ومع ذلك فربما لم تكتسب مسقط أهمية تجارية إلا بعد قدوم البرتغاليين إلى الخليج في عام ١٥٠٨، عندما تحولت إلى ميناء وسيط، تفد إليه السفن البرتغالية في طريقها بين الغرب والشرق. ومنذ استرد العرب مسقط في عام ١٦٥٨ من البرتغاليين، أي بعد مائة وخمسين سنة من الاحتلال البرتغالي، لم يبق من أثر للبرتغاليين إلا تحصيناتهم وكنائسهم، التي اتخذ الإمام من إحداها مقراً.

ومنذ جلاء البرتغاليين وحتى وقت زيارة ولستد، كان الحكام يتخذون من "الرستاق" مقراً لهم، ولا يفدون إلى مسقط كثيراً. ورصد ولستد تحصينات مسقط الجيدة التي تجعل الهجوم عليها نهاراً أمراً صعباً. ويقول ولستد إن منظر مسقط للقادم من البحر منظر نادر، رومانسي، خلاب، يأسر ألباب الوافدين بحراً

إلى البلدة. فبيوتها البيض، وجبالها الشاهقة السود، الخالية من الأشجار، تهدي العيان تناسقاً متميزاً. في هذا المشهد تبرز قباب المساجد ومآذنها العالية، شأنها في ذلك شأن المدن الشرقية الإسلامية. وتختلف الصورة الداخلية لمسقط عن صورتها الخارجية، فشوارعها ضيقة، مزدحمة بالسكان، تكثر فيها الأسواق التي تبيع التمر والحبوب وغيرها من السلع.

ويلفت انتباه ولستد تلك المباني البسيطة، التي يجلس أصحابها على دكك صغيرة، مظللة بنسيج من الكتان، يقيهم حر الشمس المباشرة. ويوجد بالمدينة أيضاً منازل ذوي الوجاهة الاجتماعية، وقصور أقرباء الأمراء السابقين، فضلاً عن قصر الأمير (السيد) وقصر والدته. ويقارن ولستد بين الطبيعة المعمارية لتلك القصور والعمارة التي سبق له أن شاهدها في اليمن والحجاز وفارس.

ومسقط غنية بمواردها الغذائية الدائمة، والتي تتميز بجودة تفوق غيرها من مدن المنطقة، ففيها مختلف أنواع اللحوم والدواجن والأسماك والفاكهة على مدار العام. ويشرب أهلها مياه عذبة من بئر مجاور، وتم حفر فلج (مجرى مائي ضيق) يجلب الماء من البئر إلى المدينة.

أما سكان مسقط فيبلغون نحو ٦٠ ألف نسمة، وهم خليط من العرب والفرس والهنود والسوريين، الذين وفدوا إليها عبر الخليج، ومنهم أيضا الأكراد والأفغان والبلوش، وغيرهم من

الأقوام الذين طاب لهم العيش في مجتمع متسامح. ولعل هذه الصفة لا تزال تلازم العمانيين إلى اليوم. ويؤكد ولستد على أن التسامح في مسقط قديم، ممتد الجذور في عمق الزمن، وليس من الصفات المستحدثة، التي اكتسبها أهلها، فقد استقبلت هذه البلاد، قبل ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم بقرنين، عناصر قادمة من بلاد فارس، وفي الوقت الراهن (١٨٢٨) تستقبل بترحاب جماعة من اليهود الفارين من حكم داود باشا والي بغداد.

والعناصر الأفغانية في مسقط غير مقيمة على كثرتها، فهي إما ذاهبة إلى مكة المكرمة، أو عائدة منها، وهم لا يعملون عادة بالتجارة، ولا يختلطون بالعناصر الأخرى.

أما البلوش فهم - على غير منهج الأفغان - يخالطون الجميع، ويقبلون العيش بأسلوب حياة متواضعة، وبعضهم يعمل في حرس الإمام، أو في نقل الأمتعة، أو جنودا مرتزقة، وهم يتمتعون بروح مرحة. ونادراً ما يقبل أهل مسقط بمصاهرتهم، فالزواج لا يتم بين عرب عمان والفرس إلا نادراً، ولكن القيود رفعت بعد ما تزوج الإمام من أميرة شيراز.

والفرس يعملون في مسقط بالتجارة غالباً، وخاصة في السلع التي تفد من الهند، كما يعملون بتجارة البن وماء الورد. ويعملون في صناعة السيوف والبنادق التي تجد رواجاً في الداخل. ولهؤلاء الفرس قضاء خاص داخل عمان.

ومع تعدد الأقوام التي تفد إلى مسقط أصبح سكانها هجيناً، وخاصة مع تأثير العبيد والإماء الوافدين من شرق أفريقيا، الذين تزاوجوا مع السكان الأصليين، ولكن بعض العناصر من علية القوم نجحت جزئياً في الاحتفاظ بنقاء سلالتهم العربية.

أما البانيان في مسقط فعددهم كبير، وهم يتزايدون باستمرار، وبلغ عددهم – وقت وجود ولستد – نحو ١٥٠٠ فرد. وهو عدد يفوق عددهم في أية مدينة أخرى في الجزيرة العربية. وقد استثمروا روح التسامح في مسقط، فسمح لهم بإنشاء معبد صغير يحتفظون فيه بعدد من الأبقار التي يتعبدون إليها أو يحسنون معاملتها. ويسمح لهم بممارسة طقوس دفن موتاهم بالحرق، وممارسة عبادتهم بحرية، وهم يتمتعون بكافة المزايا التي يتمتع بها الرعايا المسلمون. وهم يأتون عادة من شمال غربي الهند، ولديهم القدرة على الحياة بعيداً عن الوطن الأم لمدد تطول إلى ١٥ أو ٢٠ سنة، وهم عادة لا يصحبون نساءهم معهم في سفرهم هذا. ويبدو أن هذه العادة لا تزال تلازمهم إلى اليوم، وقد وقفت على ذلك من خلال رصد تواجدهم في منطقة الخليج.

وللبانيان تقاليدهم، ولهم أسلوب خاص في إشهار إفلاسهم المالي. فالرجل المفلس يجلس أمام متجره واضعاً أمامه شمعة متقدة في وضح النهار، رمزاً لإعلان الإفلاس، فيتوافد عليه أهل ملته فيكيلون له السباب والشتائم، وينهالون عليه ضرباً. وما أن

تنتهي هذه المظاهرة ويهدأ الغليان ضده حتى يعود الرجل لممارسة نشاطه من جديد بريئاً من أي مساءلة مالية أو دَين، إلى حين تتحسن أحواله المالية، فيبدأ الدائنون في مطالبته من جديد للوفاء بالالتزامات المتأخرة عليه.

أتيحت لولستد فرصة مشاهدة أبقار البانيان في صحبة أحد التجار العرب وبعض البدو، فوجد في إحدى الحظائر حوالي مائتي بقرة منعمة ذات ملمس ناعم، وبينما سمح له وللتاجر العربي بالدخول إلى حيث الأبقار، منع البدو المسلمين من ذلك خوفاً من استخدام أسلحتهم في طعن الأبقار، ولكنهم وقفوا خارج الأسوار، يراقبون منظر البانيان وهم يؤدون طقوس العبادة للأبقار. وتظل هذه الأبقار موضع عنايتهم إلى أن تمرض، فيرسلونها إلى الهند مرة أخرى. والتجار البانيان هم التجار الرئيسيون في المدينة، ويحتكرون تجارة اللؤلؤ في الخليج بصفة عامة.

ويشير ولستد إلى طائفة اليهود، الذين يوجد عدد قليل منهم في مسقط منذ عام ١٨٢٨، قادمين من بغداد، بينما ذهبت مجموعة أخرى إلى الهند، وثالثة إلى فارس. وآثرت مجموعة مسقط البقاء فيها بسبب التسامح الذي أظهره إمام مسقط، فهم لم يجبروا على ارتداء ما يميزهم، أو السكن في أماكن معينة معزولة، كما كان الحال في اليمن، ولا يجبرون على المرور من

يد المسلم حين يقابلونه في الطريق. وهم يمارسون أنشطة متنوعة، منها صناعة الفضة، والأنشطة المالية، وتجارة الخمور.

وتقوم مسقط بدور رئيس في التجارة بين الجزيرة العربية والهند، وبين داخل عمان وخارجها، وتجني من وراء ذلك عائداً مالياً كبيراً، مقارنة بالموانئ الخليجية الأخرى، وإن كانت قليلة مقارنة بموانئ الهند وموانئ أوربا، أو ميناء جدة. فمسقط تلعب دوراً في إعادة التصدير، وخاصة البن واللؤلؤ، وتعمل في هذه التجارة نحو عشر سفن.

ويصف لنا ولستد رحلة إحدى هذه السفن من مسقط إلى جدة مرة واحدة في العام، فهي تُملأ تمراً وتبغاً وسجاداً مع عدد كبير من الحجاج الفرس، وتفرغ حمولتها في جدة وتبقى هناك إلى أن ينتهي موسم الحج بعد شهرين، فيعود هؤلاء على السفينة ذاتها إلى المخا والحديدة، ويستبدل أصحاب السفينة ما لديهم من سبائك ذهبية - أخذوها أجوراً من الحجاج - بالبن اليمني، الذي يبيعونه في مسقط لأهل المدينة وللبدو، ثم يعاد تصدير الباقي منه عبر الخليج إلى البحرين والبصرة عن طريق البانيان.

أما تجارة اللؤلؤ فتأتي إلى مسقط في طرود مختومة على قوارب صغيرة، ثم يعاد شحنها على مراكب كبيرة إلى بومباي، ولا يباع منها في مسقط إلا القليل. وتجد اللآلئ في بومباي سوقاً رائجة، إذ يشتريها الزرادشت (عباد النار أو المجوس) وهؤلاء يعيدون تصديرها إلى الصين. هذا بالنسبة للسلع العابرة إلى

مسقط. أما السلع الصادرة منها، فتتمثل بصفة أساسية في التمر الذي يصدر إلى الهند، وإلى بعض موانئ جنوبي الجزيرة العربية. كما تصدر مسقط نوعاً من الأصباغ الحمراء إلى الهند، وتصدر أطراف زعانف الحيتان إلى الصين، لتصنع منها الحساء (الشوربة) هذا فضلاً عن السمك المملح إلى الهند، وكذلك تتاجر مسقط في بغال فارس وحمير البحرين.

وصف ولستد مدينة مطرح، التي قال عنها إنها مدينة كبيرة، تبحر إليها سفن إمام مسقط، ولا تقصدها السفن الأجنبية إلا نادراً. ويفصل مطرح عن مسقط مسافة ميل واحد، والبحر هو الطريق المفضل للوصول إليها، لصعوبة التضاريس. ويبلغ عدد سكانها نحو ٢٠ ألف نسمة، ويعمل أهلها في صناعة النسيج، التي يصنع منها العباءات الصوفية التي يلبسها أهل الجزيرة العربية، ولا يكاد يخلو بيت من آلة نسيج. ويتمتع نساء مطرح بجمال لا يفسده إلا صبغ الجلد بالحناء على عادتهم.

ومن مطرح انتقل ولستد بالإبل إلى قرية رواح، حيث الخضرة وآبار المياه. وأظهر إعجابه بالرجال قصار القامة، الذين يطلقون شعورهم، والذين هم محبون للمرح، ويتحدثون كثيراً عن بلادهم، ولكنه واجه صعوبة في التحاور معهم دون مترجم، فمعرفته بالعربية اكتسبها من لهجة أهل البحر الأحمر. ومع غياب الشمس كان يصادف مجموعات من العرب، الذين أناخوا إبلهم بعيداً عن الطريق، وأوقدوا نارا في وضح النهار.

وفي اليوم التالي وصل ولسستد ورفاقه إلى عين الماء التي كان يقصد لزيارتها، فوجدها تتدفق بغزارة، وأقيم عند فوهتها مستودع مربع الشكل، تتجمع فيه المياه للرواد الراغبين في الاستحمام. ويضع البدو المياه في آنية فخارية ذات مسام (القلة) لتبريدها، فيشربونها، وهي أفضل وسيلة لديهم لتبريد المياه. وهذا المصدر المائي هو سر الحياة الخضراء من حوله في الصحراء.

ويعتقد البدو في أن هذه المياه تشفيهم من الأمراض، ولذلك، فإنهم يشدون الرحال إليها من بلاد بعيدة، ويقيمون من حولها، رغم أن درجة حرارتها ١١٠ ْفهرنهايت (حوالي ٤٣ ْم). وينصح المرضى بالبقاء في هذه المياه طويلاً رغم ارتفاع درجة حرارتها. وبالقرب من هذه العين يوجد مسجد صغير به رجل مسن، يدعو للمرضى بالشفاء متى طلب منه ذلك.

وينطلق الماء بعد ذلك في مجار مائية (أفلاج)، فيبرد خلال رحلته في القنوات، ويروي به الزرع، وفي هذه المنطقة تنمو أشجار الفاكهة والخضروات، وثمراتها أكبر حجماً من مثيلاتها في أماكن أخرى من عمان. وفي هذه المنطقة التي يسكنها بنو وهب، تفد أعداد كبيرة من البدو للهروب من الحر الشديد في آخر موسم الحصاد، لأن المنطقة في نظرهم تعتبر من أكثر المناطق المناسبة للسكني في عمان.

وفي ٢٥ نوفمبر تم إعداد مركب لنقل ولستد من قليهات إلى صور عبر مسقط. فأبحر من منطقة تسمى فتحة الشيطان، وهي فتحة في سلسلة جبلية محيطة بالمدينة، حيث تعرضت مركبه لعاصفة شديدة. ثم وصل إلى قليهات، وهي مدينة قديمة، لم يبق منها سوى الخرائب، ولا يوجد فيها قائما سوى مبنى واحد هو المسجد الصغير، الذي نقشت على جدرانه بعض آيات من القرآن الكريم، يقول ولستد "فهمت من بعض الكتابات فوق جدرانه أن المسلمين الهنود يقصدون هذا المسجد للصلاة". وبالقرب من هذه الخرائب توجد قرية صغيرة يعمل أهلها بصيد الأسماك، "ويقوم سكانها بالنبش في الخرائب بحثاً عن عملات ذهبية تعد من أنقى المسكوكات الذهبية معدناً، وتعود إلى عهد الخليفة هارون الرشيد، إذ تجد اسمه مضروباً عليها".

"غادرنا قليهات وبلغنا صور بعد فترة قصيرة من الغروب، ورست مركبنا في الميناء الداخلي قريباً من الساحل". وعلى طول الساحل من مسقط إلى صور تمتد سلاسل جبال غير منقطعة، وينحدر منها أودية متعددة يجري فيها ماء نقي، وعند الأودية توجد حدائق النخيل، وبينما تجود الجبال بالمياه، تبقى جرداء وتخضر الأودية المحيطة. وتبدو البلدة وكأنها تجمع كبير من البيوت الصغيرة المتراصة على جانبي الخليج الداخلي. وتسكن القبائل حول هذا الخليج، ولكل منها منطقة معلومة. وقد بنيت هذه البيوت أو الأكواخ من جريد النخيل المتوافر بكثرة

والمخزوم بقوة، والذي يسمح بالتهوية الجيدة". ومن هذه المنطقة سينطلق ولستد إلى داخل عمان بصحبة الأدلاء.

أهل صور تجار همهم الكسب، ولذلك فميناء المدينة مزدحم بالمراكب المعروفة بـ "البغلة" وهي تبحر بين صور والهند والخليج وشرق أفريقيا؛ لتنقل التمر والسمك والملح، باعتبارها أهم الصادرات، وتعود محملة بالحبوب والأقمشة، ولكن معظم الدخل يأتي من التجارة العابرة.

خرج ولستد في أول ديسمبر بصحبة أدلائه، مستخدماً الخيول التي كانت تتعثر في المنطقة الوعرة، فاستعاض عنها بالحمير، فحملته إلى سفوح الجبال، ثم بدأ يكيف نفسه في السير، أحياناً على القدمين وأخرى على القدمين واليدين، حسب طبيعة المكان وتضاريسه، مستمتعاً بما يتوافر من مياه العيون التي تتدفق من جوانب الجبال، وقادته الرحلة إلى قمة عالية، كل ما جناه من ورائها أنه استطاع أن يرى على امتداد البصر تلك المناطق الأقل ارتفاعاً، وكما هو معروف جغرافياً، فإن الحرارة تنخفض على المناطق المرتفعة، فأسعده هذا الجو المنعش. ومع أنه رأى أغناماً وحيوانات كثيرة، إلا أنه لم يلمح إنساناً واحداً.

هذه المنطقة الواقعة في أقصى الجنوب الشرقي لسلسلة الجبال في مواجهة البحر بالقرب من قليهات تسمى فُنْله، وتضم حوالي ستين قرية يسكنها ١٥٠٠ مواطن، ينتمي معظمهم إلى بني خالد وبني داود.

والأمطار في المنطقة غزيرة، وتزرع فيها البقوليات والفواكه، ويرسل عشرها جباية إلى شيخ صور.

"التقينا بعد ذلك ببعض الرعاة، الذين تحاور الدليل معهم، وطمأنهم إلى شخصيتنا، فدعونا إلى طعام الغداء، فاحتمينا بصخرة عالية اتقاء هبوب الرياح، التي كانت تعصف بنا. وكان الطعام كالعادة تمراً ولبناً". وبعد الغداء اصطحب هؤلاء البدو ولستد ورفاقه إلى الأكواخ حيث استراحوا. وكانت الأكواخ مبنية بالأحجار المرصوصة فوق بعضها، والمسقوفة بالأعشاب، التي تنمو في البيئة المحيطة، بالقرب من جدول ماء. والكوخ من الداخل مفروش بالجلد. وإلى الداخل جاءت فتيات يحملن إناء ملئ لبناً، فشرب منه حتى امتلأ، وإرضاء لهن قدم في المقابل بعض الهدايا تعبيراً عن المودة. ثم عاد من طريق أخر هو ورفاقه إلى سوق صور.

غادر ولستد صور بعد أن تم تجهيزه بالجمال لرحلة طويلة في اليوم التالي (٢ ديسمبر). وكانت بساتين النخيل تنتشر على طول الطريق. أقام ولستد يوم ٣ ديسمبر مخيماً ليبيت ليلته في منطقة تضم ثلاث قرى، هي: حميده والكامل والوافي، ولكل منها قلعة صغيرة، والأرض المحيطة بالقرى مستثمرة جيداً، ومياهها وافرة. والبدو فيها لا يسيرون فرادى، لأن القبائل في حالة نزاع دائم، وكثيراً ما تعرض ولستد لمواقف مقلقة، ولكن الأدلاء كانوا يتصرفون بكياسة مع المارة.

وسلطة السيد سعيد في هذه المنطقة اسمية، وهي قائمة على الهدايا التي يقدمها السيد سعيد إلى شيوخ المنطقة، والقانون العرفي المحلي هو المطبق لفض المشاكل بين البدو، والقوي يأكل الضعيف كما هو الشأن في كثير من المناطق الصحراوية المعزولة. (ص ٥٠)

وصل ولستد إلى ديار بني البو حسن، الذين يبنون أكواخهم تحت ظلال النخيل، وما أن علموا بقدوم هذا الغريب، حتى تجمعوا حباً للاستطلاع كعادة البدو، وتدفقوا على خيمته، ولم ينصرفوا إلا مع مغيب الشمس، رغم الطلب المتكرر من شيخهم لهم بالانصراف. وتضم القبيلة نحو ١٢٠٠ رجل، فضلا عن النساء والأطفال، وهم مسلحون بأكثر من ٧٠٠ بندقية، وليس لهم عمل سوى رعاية النخيل، أما باقي الوقت فيصرفونه في الصراعات والغارات المتبادلة مع القبائل الأخرى.

وفي المساء جاء شيخهم ليقنع ولستد بعدم زيارة قبيلة بني البوعلي، الذين قيل عنهم أنهم يكرهون الإنجليز، وأنهم غير موالين للسيد سعيد، ولكن ولستد لم يستمع إلى هذه النصيحة، وواصل مسيرته (ص ٥٢).

وقبل أن يواصل وصفه لرحلته، نجد ولستد في السطور التالية يقدم عرضاً تاريخياً لقبيلة بني البوعلي وصداماتهم مع الإنجليز في عام ١٨٢١.

ينتمي بنو البو علي إلى أصول نجدية، وربما لا يزال بقاياهم يعيشون هناك، وربما انفصل هؤلاء عن علي بن أبي طالب بعد معركته مع معاوية بن أبي سفيان حول الخلافة. وساد المذهب الإباضي بين هذه الجماعة، وظلوا كذلك حتى عام ١٨١١، حين تحولوا إلى المبادئ الوهابية، نتيجة لغزو عبد العزيز بن محمد بن سعود، ومنذ ذلك الوقت لم يعودوا يلقون مناصرة القبائل العمانية. (ص ٥٤)

وحين تراجع الوهابيون عن التقدم في أراضيهم، تمكن بنو البو علي من تحصين أنفسهم، وأصبحوا يحملون على القبائل العمانية المجاورة، وصارت لهم سطوة كبيرة عليهم، لدرجة أن الإمام لم يستطع القضاء على سلطانهم، فاستعان بالكابتن طومسون البريطاني الموجود في جزيرة قشم ليعينه على بني البوعلي. ولم يتردد طومسون وجهز قوة ساندت قوة الإمام، التي كانت متجمعة في صور. (ص ٥٥)

يقول ولستد في وصف المواجهة بين القوة القادمة وبدو بني البوعلي: "تراجع البدو... واستقروا بين الأشجار المحيطة بالقلعة... وأصبحت القوة في منطقة تقع على خط مواز لأشجار بني البو علي، عندئذ خرجت عليهم القبيلة فجأة من بين الأشجار، التي كانوا قد اختبئوا وراءها، وانقضوا على القوة، التي لم تكن الأوامر قد صدرت إليها... وباتوا هدفاً مزقته سيوف أبناء القبيلة... واضطرت الحملة البريطانية إلى

الانسحاب، تاركة ثلثي أفرادها قتلى، ولم يبق على قيد الحياة سوى الكابتن طومسون واثنين من ضباطه ومائة وخمسين جندياً، تمكنوا من الهروب".[1] (ص ٥٦). وحين وصلت أنباء هزيمة القوة البريطانية إلى بومباي، أرسلت الحكومة البريطانية هناك حملة قوامها ثلاثة آلاف رجل تحت قيادة السير ليونتيل سميث (ص ٥٧)

تحالف بنو البوعلي مع آخرين من جيرانهم لمداهمة القوة البريطانية فجأة بالليل، ونجحوا في ذلك وأصابوا عدداً كبيراً من القتلى، ثم انسحبوا دون خسائر. يقول ولستد :

"بدأت المعركة عندما تقدمت قواتنا نحو القلعة، وتصدى لهم العرب في سهل مكشوف، كان عددهم حوالي ٨٠٠ رجل تؤازرهم مجموعة كبيرة من النساء، اندفعوا يقاتلون بتصميم رغم أن طلقات المدافع كانت تحصدهم حصداً، حارب العرب بشجاعة نادرة، ولم يتراجعوا عن ميدان المعركة، حتى أسفرت المعركة عن قتلهم جميعاً، ولم يظفر منهم بالنجاة إلا الجرحى". (ص ٥٨)

أسرت القوات البريطانية الجرحى، وكان شيخ القبيلة من بينهم، وأرسلتهم جميعاً إلى بومباي، حيث بقوا هناك لمدة عامين،

---

[1] اتبع الأمريكيون الأسلوب نفسه في مهاجمة الجيش الإنجليزي في حرب الاستقلال الأمريكية، قبل أحداث عمان بنحو خمسين عاماً، وهم الجماعة المعروفة باسم "رجال الدقيقة".

ثم عادوا إلى وطنهم محملين بالمال والهدايا لإعادة بناء منازلهم. يقول ولستد "منذ ذلك التاريخ الذي جرت فيه المعركة وحتى هذه اللحظة لم يطأ هذه الأرض أوربي سواي".(ص ٥٩)

يعود ولستد لوصف رحلته عبر أراضي بني البوعلي التي تشبعت أرضها بالدماء في عام ١٨٢١ على أيدي الإنجليز، وأصبحت أرضاً معادية لكل من هو إنجليزي. وعلى عكس كل توقعاته قوبل ولستد بترحيب حار. يقول ولستد:

"كشفت لهم عن هويتي الإنجليزية، وعبرت عن رغبتي في أن أبقى معهم لعدة أيام، فاستحسنوا ذلك، وصفقوا، ودوت طلقات المدافع القديمة والبنادق تعبيراً عن الترحيب، وعملوا أقصى ما في وسعهم لجعل إقامتي بينهم مريحة. فنصبوا لي خيمة وجاءوا بخروف فذبحوه، وقدموا إلي اللبن في وعاء كبير. كان استقبالهم لي رائعاً بحق، وكانت استضافتهم صادقة بحق، مع أن موقع الخيمة كان مواجهاً للقلعة التي دمرناها من قبل". (ص ٥٩)

يقول ولستد في وصف بني البوعلي، الذين يقيمون بالقرب من البحر: "إنهم لم يدنسوا أنسابهم بالاختلاط... وهذا ما يدعو إلى الاعتقاد بنقاء قبائل المناطق الداخلية... إننا لا نعرف كثيراً عن عادات البدو الخلص، ولا عن شخصياتهم الحقيقية، فالبدو، على الحدود السورية والعراق، أفسدهم الاتصال بالأتراك وبغيرهم، وكذلك الحال في مناطق الحجاز وحضرموت...

وسأسهب في الحديث عن ملاحظاتي حول بدو عمان". (ص ٦٠)

"جاءني بعد صلاة العشاء أحد شباب الشيوخ بصحبة أربعين من رجاله، وأفاد أنه سيتولى حراسة الخيمة طوال الليل. ولما كان من العسير دعوة هذا العدد إلى داخل الخيمة، كما أنه ليس من اللياقة دعوة بعضهم، خرجت إليهم لنجلس خارج الخيمة. كانت ليلة صافية لا ترى مثلها إلا في الصحراء... كان ضيوفي يعرفون شيئاً من عاداتنا... وأتاحت لنا فرصة للحوار... وكان ديننا (المسيحية) موضوعاً للحوار... وحاولوا جري إلى عقد مقارنة بينه وبين الإسلام... وقال شيخ مسن: إن كل دين صالح لأهله الذين يؤمنون به، ويمارسون طقوسه". (ص ٦١)

ثم انتقل الحوار إلى موضوع النساء في المجتمعات الغربية، "وسئلت إن كان صحيحاً أن نساءنا يخرجن سافرات ويرقصن في الأماكن العامة... فاعترفت لهم بصحة هذا الأمر، وقلت إننا لا نعلق أهمية على مثل هذه الأمور... فنساؤنا متعلمات علماً نافعاً... ونحن بهذا راضون... وهن رفيقات لنا... وسألوني عن فائدة القراءة والكتابة لهن إذا كن يقمن بأداء الأعمال المنزلية، وقال شيخ كبير:

"الرجال للسيوف أما النساء فلعالمهم في المنازل"...

"the men to their swards‹the women to the distaff"

رصد ولستد أن المرأة في هذه القبيلة تقوم مقام الرجل في غيابه،

فحينما ذهب الشيخ لأداء فريضة الحج، حملت زوجته وأخته مسئولية حكومة القبيلة.

كان ولستد مندهشاً من تعليقات البدو على عادات الإنجليز، ولم يقدم لنا في كل الأحوال كيف كان يرد على استفسارات البدو، وإلحاحهم على طرح قضايا لا يدري هو كيف عرفوا بها. ومنها الاستفسار عن وضع كوب صغير أمام كل واحد منهم عندما يجلس على المنضدة، يظل يملأه من حين لأخر من إناء أكبر موضوع على المنضدة ذاتها، مع أن الجميع يمكن أن يشرب من الإناء الكبير نفسه. كما سألوه عن السبب في انصراف السيدات عن مجالس الرجال قبل الفراغ من شرب الخمر، ولا ينصرف الرجال إلا بعد أن ينصرف النساء، وأسئلة أخرى كثيرة لم يجب عليها ولستد. (ص ٦٣)

كانت هذه الحوارات تدور، بينما أحد العبيد يطحن البن في جرن، ويضرب بالمدقة على قعره وجوانبه، بنمط معين وتوقيت محسوب، فيحدث ذلك إيقاعاً، كأنه رنين الأجراس. وكان يغني غناء يتناغم مع الموسيقى الصادرة عن سحق البن في الجرن. وظل الحال على هذا المنوال حتى ساعة متأخرة من الليل. وفي الصباح وجد رجلاً جالساً بالقرب منه، حاملاً له إبريقاً من اللبن، فشربه عن آخره، ثم خرج يتفحص المكان الذي شهد من قبل هزيمة الكابتن طومسون، وكانت آثار المعركة لا

تزال باقية، متمثلة في بقاء بعض جثث القتلى على حالها دون أن تتعفن فوق الرمال. (ص ٦٤)

كان البدو يتحدثون عن هزيمتهم بروح الدعابة. ولاحظ ولستد أن العربي حين يخرج للقتال يتخفف في حمل أمتعته، ليتمكن من الكر والفر، ولا يحمل على ظهر بعيره سوى الماء في وعاء جلدي، وجراب صغير به دقيق مبلل. وكان يعجب من أمر الجنود الإنجليز الذين يحملون أثقالاً، والذين يحملون معهم براميل الخمر. (ص ٦٥)

وفي صحبة سلطان (الشيخ الشاب) زار ولستد زوجة الشيخ الكبير، الذي سافر لأداء فريضة الحج في مكة المكرمة، وبينما يدلف إلى المكان، يرصد ولستد أن البدو هم أكثر الناس تمسكاً بعاداتهم القديمة، حتى وإن سكنوا المدينة، ويقدم لذلك مثلاً حياً فيقول: "منذ شهور، احتل بدو عسير مدينة المخا، وجلبوا معهم أغنامهم وأسكنوها في الأدوارِ العليا من المنازل".(ص ٦٧)

ونيابة عن الشيخ المسافر، استقبلته زوجته وأخته، المحجبتين، بحيث لا يُرى منهما إصبع، في غرفة صغيرة، بها مصطبة ترتفع قدمين عن سطح الأرض. وعبرتا عن سرورهما لزيارة أحد الإنجليز لبلادهم، وتحدثتا في أمور السياسة، والحكم والسيد سعيد والحماية الإنجليزية، والتجارة بين الداخل والساحل، وأشارتا إلى الهدايا التي تلقتها القبيلة من الإنجليز، وقد نسي

للجميع مشاعر العداء السابقة، أو كما قالت السيدتان "حاربناكم وقدمتم لنا تعويضاً، فعلينا الآن أن نصبح أصدقاء". (ص ٦٨)

أعدت السيدتان طعام الغداء لولستد والشيخ الشاب (سلطان) من لحم الإبل، وخروف مسلوق، وطبق أرز كبير، وما أن تم تجهيز الطعام حتى استأذنت السيدتان، ليلتهم هذا الغداء الدسم رجلان فقط. وبعد عودته إلى خيمته وجد أفراد القبيلة في انتظاره وكان عددهم ٢٥٠ فرداً، مستعدون لتقديم رقصة الحرب الخاصة بالقبيلة. إذ شكل هؤلاء الرجال حلقة، دخل إلى مركزها خمسة منهم، أخذوا يسيرون الهوينى، ثم تفرقوا تجاه أفراد الدائرة، وبضربة سيف من أحد الواقفين في الدائرة وكأنه يتحداه، تبدأ معركة وهمية بين من كانوا في مركز الدائرة ومن عمل على تحديهم. ثم يبدأون يلعبون بالسيوف، ويتقون الضربات بالقفز في الهواء أو بالرجوع إلى الخلف. أما السيوف فمستقيمة ويبلغ طول الواحد منها ثلاثة أقدام، وله حدان في حدة الموسى. (ص ٦٩)

وفي مشهد أخر، قام بعض الرجال بتصويب فوهات بنادقهم إلى أقدام الواقفين، المندمجين في مراقبة الألعاب، بهدف مراقبة ردود الفعل لديهم، إذ إن ظهور أي حركة من أحدهم بغير وعي تدل على الانزعاج، ومثل هذه الإثارة تضيف شيئاً من المرح والسعادة. أما موسيقى الحفل فكانت تأتي من الضرب على طبلة صغيرة، يتوفر عليها أحد العبيد. ثم استعرض الناس

قدراتهم على التصويب وقذف الأهداف بالذخيرة. وبذلك انتهى الحقل. وفي المساء جرى سباق للهجن، وسيطر المتسابقون على إبلهم بخيوط ربطت إلى أنوفها، ولكن سرعتها لم تكن كبيرة. (ص ٧٠)

وفي يوم ٦ ديسمبر وجه شيخ بدو الجنبة، الذين شاركوا في سباق الإبل، الدعوة إلى ولستد لزيارته، فلبى الأخير الدعوة، وبدأت رحلتهم عبر الصحراء، في صحبة مرحة وشعور بالأنس والجمال. يقول ولستد:

"سمت روحي ونحن نجتاز الصحراء المترامية الخالية من الأشجار والمياه، بل خلت من الجبال وكل مظاهر التضاريس، ووجدت في هذه المناظر البدائية العارية الشاسعة ما يذكرني بالمحيط المترامي الواسع، وينسجم منظر مرافقيّ مع تلك المظاهر العجيبة التي تميز أرضهم، فبناء البدوي القوي النحيف، وأطرافه النظيفة المستوية، التي تكشف عنها ثيابه التي لا تستر لون بشرته السمراء الداكنة إلا قليلاً، واتقاد نظرات عينيه التي تفيض حيوية وتشع تصميماً، كلها مظاهر تتواكب وتتناغم مع معالم الأرض التي نجتازها". (ص ٧٢)

لم يكن شيخ الجنبة أو أي من مرافقيه يرتدي غير خرقة واحدة، ربطها حول وسطه، أما أعلى جسده فقد تركه عارياً، ولا يوجد على رأسه غطاء، وشعورهم تركوها مسترسلة حتى

خصورهم، غرس الشيخ حربته في الرمال وقال هذه أرضنا، أرض البدو.

في هذه الرحلة قرر ولستد أن يعيش مع البدو على طريقتهم دون خادم أو متاع خاص، فقد ذهب بعضهم لإحضار الأرز والتمر، أما هو ورفاقه فجلسوا تحت شجرة حيث أوقدوا ناراً، ثم قام بالطبخ مع الآخرين، واستمتع معهم بوجبة شهية. (ص ٧٣) رصد ولستد أن للبدو حظ وافر من التراث الشعبي، يقوم أساساً على ذكر أيامهم وحروبهم وتمجيد أسلافهم، وإنشاد الترانيم، ويعددون مآثر خيولهم، والبدوي بطبيعته يهوى الغناء والإنشاد، حين يرعى قطعانه، أو يجلس إلى النار، أو حين تهيجه هموم الحب، وتحركه شجون الحرب. ويتغنى البدوي بقصائد تتفق معانيها وتتناغم في تعابيرها مع المناظر التي يصفها.

والميزة الكبرى في موسيقى البدو البدائية الغليظة، أنها تتناغم مع حركاتهم البطيئة في الرقص، أما حين تنشط الموسيقى، فتراهم وقد اتحدت أصواتهم في ترديد جماعي، وهم يقفزون إلى أعلى. وحين انفض السامر، وخلد الجميع إلى النوم، جعلوا حول المعسكر عدداً من كلاب الحراسة. (ص ٧٤)

وفي صباح ٧ ديسمبر، بدأ ولستد رحلته في طريقه إلى
الذي اصطحبه، فوجدهن يجلسن في كوخ دائري
ـصير على سجادة قديمة أمام نار متقدة، فجلس إليهن، ودخل معهن في حوار طويل، أجاب خلاله على مئات الأسئلة المتصلة

بحياة الإنجليز. ولم يكن بالكوخ أي أثاث سوى بعض الأوعية من الجلد، التي يوضع فيها الماء والتمر، وإناء فخاري لصنع القهوة، وبعض الأواني النحاسية التي يوضع فيها الأرز، وبعض الحصر والجلود المفروشة على الأرض. وفي أحد الأركان كومة من السمك المملح. (ص ٧٦)

بحث ولستد في أصناف النباتات التي تنمو في المنطقة، فوجدها كثيرة ومتنوعة، ولاحظ أن الأرض التي تظللها الأشجار تكون عادة رطبة حتى في أقسى درجات الحرارة. كما لاحظ أن لأوراق هذه الأشجار خاصية في الاحتفاظ بذرات الندى الذي يتشكل في الصحراء بشكل أكثر غزارة منه في أية بقعة أخرى. وأوراق أشجار فصيلة الأكاسيا تكون مرفوعة نسبياً إلى أعلى، وما أن تستقبل أشعة الشمس حتى تعود إلى شكلها الطبيعي وترتخي فتتساقط منها قطرات الندى. (ص ٧٧)

والبني جنبة من العناصر المتشبثة بالأرض، يبلغ عددهم ٣٥٠٠ فرد، وتقع ديارهم إلى الجنوب من ديار بني البوعلي، ولكن عدداً آخر منهم يعيش في مناطق مجاورة متفرقة، ويقتاتون على صيد الأسماك والرعي. ولهم أعراف وتقاليد يطبقونها في العقوبات، فيفرضون على السارق عقوبات خفيفة لا تزيد عن إعادة المسروق أو التعويض عنه، فإذا تكرر منه ذلك يفرضون عليه غرامة إضافية بعد رد الشيء المسروق. ولا يحكم على السارق بالحبس إلا في المرة الثالثة. (ص ٧٨)

وفي ٨ ديسمبر ١٨٣٥ قرر ولستد العودة إلى ديار بني البوعلي عن طريق مختلف. ولدى وصوله في اليوم التالي، اكتشف أن عنزة كانت أهديت له قد سرقت من خيمته، وأن البدو تجمعوا عند الخيمة ليثأروا من السارقين. وتأكد له أن أتفه الحوادث قد تأخذ الجميع إلى ميدان الصراع، ولعله من النادر أن يمر عام دون أن يرسل الإمام وفوداً لإصلاح ذات البين. (ص ٨٣)

V

رحلة ليدي آن بلنت إلى حائل

Ann Blunt

عام ١٨٧٩

V

رحلة ليدي آن بلنت إلى حائل

Ann Blunt

عام ١٨٧٩

ليدي آن بلنت، هي حفيدة لورد بيرون Lord Byron وزوجة الشاعر ولفريد سكاون بلنت Wilfrid Scawen Blunt وهي أول امرأة إنجليزية تعتبر البدو من بين أصدقائها. أسست مع زوجها الاسطبل الشهير للخيول العربية في كرابت بارك Crabbet Park الذي ظلت ابنتهما ليدي ونتورث (الشاعرة والرحالة) Lady Wentworth تحتفظ به حتى عام ١٩٣١[1].

كانت ليدي آن بلنت مهتمة بجمع الروايات والحكايات والقصص والأساطير، وساعدها على ذلك وجود (راضي) دليلها، الذي اصطحبها عبر صحراء النفود، وكذلك وجود محمد بن عروق، الذي خرج معها من دمشق، والذي كان حريصاً على إرضائها بإسماعها الكثير من قصص البادية والبطولة، وربما

[1] Miss Christable Draper, " Early Women Travelers in Arabia ". **The Asiatic Review** , vol. xxvii (1931)

أضاف هؤلاء المرافقون شيئاً من الخيال على قصصهم لإرضائها. ومن بين تلك القصص قصة " أبو زيد الهلالي". وإلى جانب تلك القصص كانت آن مهتمة بالشعر النبطي، الذي صاغه محمد بن عروق عن قصة "عشق في الصحراء" [1].

صحراء النفود لها أصداؤها التي تتردد في نفس كل شخص بدوي كان أو حضري، وقف على أرضها عبر العصور، وهذه الأصداء أقوى تأثيرا في نفوس الرحالة الأجانب، الذين وقفوا على شيء مغاير تماماً لما يعرفونه في ثقافتهم الأوربية، وهي فوق ذلك كله أشد قوة في نفس إمرأة غربية، مثل حفيدة اللورد بيرون، الذي أشتهر بتطويع الكلمة الإنجليزية شعراً وصاغها في تعبيرات بليغة، وربما تكون قد ورثت في جيناتها شيئا من مهاراته اللغوية.

هذه الأنثى (آن) روت الكثير من حكاياتها في كتابها "القصد إلى بلاد نجد" [2] Pilgrimage to Nejd حين رافقت زوجها ويلفريد سكاون بلنت Wilfrid Scawen Blunt في شتاء عام ١٨٧٨ – ١٨٧٩ في رحلة من دمشق إلى حائل. والحق أن زوجها هو الذي رافقها، بالرغم مما ميز زوجها من اهتمام بالسياسة العربية، إلا أن الكتاب الذي يحكي عن أصداء

---

(٢) عبد العزيز عبد الغني ، " آن الإنجليزية " مجلة تراث ، العدد ١٣ (١٩٩٩)

(٣) ترجم هذا الكتاب محمد غالب بعنوان : رحلة إلى بلاد نجد (الرياض ، دار اليمامة ، ١٩٧٨)

النفود كان من وضع آن. ولم يزد دور زوجها فيه عن كتابة المقدمة وبعض صفحات الفصل الأخير.

قليلون أولئك الرحالة من الرجال والنساء الذين نجحوا في رسم وتصوير رحلاتهم عبر أو خلال قلب الجزيرة العربية، ليدي آن بلنت من بين هؤلاء. وحينما ندرك أن أول رحلة لها في سنة ١٨٧٧-١٨٧٨ مع زوجها في منطقة الشرق الأدنى كانت من حلب إلى بغداد، مخترقة مناطق تسوطن قبيلتي عنيزة وشمر، وأن رحلتها الثانية في سنة ١٨٧٩ كانت عبر إقليم الجوف وجبة Jobba إلى حايل، عائدة إلى بغداد مع قافلة الحجاج الفرس، وأنها رسمت ووصفت بوضوح -بما لديها من موهبة الفنان- كل مكان مهم أو منظر غريب مرت به، سوف يتبين لنا كم هو ممتع الاطلاع على التسجيلات التي أعدتها لرحلاتها.

لعل أثمن ما قدمت من صور تلك الصورة عن منطقة النفود، ذلك الحزام الغامض من الرمال، الذي يفصل جبل شمر عن الصحراء السورية، وهو المكان المخيف، الذي كثيرا ما يضل الرحالة طريقهم فيه، أو يموتون خلاله عطشا. وقد فشل عدد كبير من الأوربيين في عبوره. ووصفه أحد الرحالة قبل زيارة آن بلنت له بأنه "بحر من النار". بالرغم من ذلك ألقت آن بلنت بنفسها فيه بسعادة، بالرغم مما اعترضها من أذى سببه بعض المغيرين. ولعل هذه اللقطات من بين ما سجلته ليدي آن

بلنت تعطي فكرة عن ذلك المكان المرعب والمدهش معا. ففي ١٢ يناير ١٨٧٩ كتبت آن تقول[١]:

"في الساعة الثالثة والنصف رأينا خطا أحمر أمامنا في الأفق، وبدأ يتجمع ويظهر، وكلما اقتربنا منه، وجدناه يتمدد ناحيتي الشرق والغرب في اتصال مستمر. ربما ظهر لنا في البداية على أنه تأثير السراب، وكلما اقتربنا منه وجدناه يتقطع إلى أجزاء، وبنظرة من على الشاطئ كان في شكله الأحمر يشبه بحرا هائجا عاصفا، لأنه ينهض إلى أعلى، كما يرتفع البحر حينما تتابع أمواجه المتلاطمة فوق مستوى الأرض. وصاح واحد: إنها "النفود". مكثنا لبرهة غير مصدقين، ولكننا اقتنعنا في النهاية. إن ما أدهشنا في النفود هو لونه المحمر، بخضرة خفيفة، مختلطة باللون الرمادي، وليس هناك ما يشبه ما رأيناه على الإطلاق. أخيرا إنها النفود، إنها الصحراء الحمراء العظيمة في وسط الجزيرة العربية."

إن السطور القليلة التالية من مذكرات ليدي آن تصف بيئة الصحراء. فحتى ١٥ يناير لاحظت ليدي آن بلنت أن تقدمها في صحراء النفود بطيء، بينما مرشدها يقص عليها وعلى فريقها قصص من سبقهم من الرحالة، الذين دخلوا إلى هذه المنطقة ولم يخرجوا منها أحياء. تقول آن:[٢]

[1] Miss C. Draper, " Early Women Travelers in Arabia ".
[2] Ibid.

توجد عظام في كل حفرة تقريبا، هي في الغالب عظام الجمال (التي مرت من هنا). وفي القاع من إحدى الحفر التي كانت على شكل حدوة الحصان توجد عظام من نوع آخر، فيها هلكت مجموعة صغيرة من الجمال، فالعظام كانت بيضاء، ولكن لا يزال يعلق بها بعض أجزاء اللحم المتدلي، بالرغم من أن راضي (المرشد الذي اصطحبها) قال إنها حدثت منذ عشر سنوات". وبعد ذلك أشار راضي إلى البقايا العظمية لأربعين من راكبي الجمال الذين فقدوا طريقهم وهلكوا من العطش.

وفي ١٧ يناير بدأت المياه تتناقص مع آن ورفاقها. وفي ١٨ يناير كانت الرمال تبدو عميقة (تغوص فيها الأقدام). ولكن كان أمامهم تلا يصعب تسلقه، وبدت المحاولات جميعها يائسة، وأخذ كل واحد نفسه مأخذ الجد في هذه الليلة. وكان يوم ١٩ يناير يوما مرعبا للجمال والرجال معا.

وأخيرا وبعد عدة أيام من الصراع مع البيئة، وفي محاولة للاتجاه جنوبا، وعلى طول امتداد القمة نزولا وصعودا في التلال الرملية، بدا أن الفريق في أمان فقد ظهرت ملامح مدينة جبة Jobba الصغيرة. التي استقر الفريق فيها لمدة يومين قبل الانطلاق إلى حايل، المدينة المثيرة الخطيرة، مركز ابن الرشيد، التي كتبت عنها الآنسة جيرترود بل بعد ذلك بخمسة وثلاثين عاما تقول: "إن رائحة الدم تفوح من المكان".

إذا كــان ســير ريتــشارد بيرتــون Sir Richard Burton هو أول شخص غير مسلم استطاع أن يتخفى داخل قافلــة حــج إلــى مكة، فإن ويلفريــد بلنــت وزوجتــه التــي لا تقهــر (آن) همــا أول أوربيين يدخلان مدينة حايل في القــرن التاســع عــشر. بينمــا فــي القرن العشرين فــإن ســان جــون فيلبــي St.J. Philby وبرتــرام توماس B. Thomas تنافسا حول أيهما يعبر الربع الخالي أولاً.

وإذا كانت دوافع بعض الرحالــة قــد انطلقــت مــن دوافــع عسكرية أو جاسوســية، أو بحثيــة، فــلا شــك أن الــبعض الآخــر يستطيع الإدعــاء بــأن رحلتــه كانــت مــن دواعــي حــب الــسفر والترحال والمعرفة كما فعل بيرترام توماس [1].

ذهبت ليدي آن بلنت وزوجهــا ويلفريــد إلــى حائــل غيــر متنكرين، على العكس من كل الذين سبقوهم إلى زيــارة حائــل. فقــد دخلا حائل كنبلاء بريطــانيين فــي زيــارة عــائلات عربيــة نبيلــة، وبينما كانت آن خجولة صــغيرة الحجــم تــتكلم العربيــة الفــصحى، مما جعل الناس لا يفهمونها، كــان زوجهــا الــضخم الجــسم يــتكلم العربية بدون قواعد النحو.

وكانــت آن تعــشق الخيــول العربيــة، ومتحمــسة لدراســة الأدب العربي شأنها شــأن زوجهــا الــذي تــرجم بعــض الأشــعار

---

[1] Andrew Taylor, **Traveling the Sands** , p.8

العربية إلى الإنجليزية وكـان يتمنـى "أن يغسل الإنسان الغربـي روحه المريضة بطهر وجمال الشرق الشافي".

وسـبق لهمـا أن زارا الجزائـر وسـوريا، وبينمـا همـا يغادران سوريا فـي عـام ١٨٧٨ أسـرتهما جماعـة مـن الغـزاة، وتعرضا لـلأذى، ولكـن المغـامرة انتهـت بالـصلح مـع الغـزاة، وجلسوا معاً لتناول الطعام، تقول آن: "إنه بالرغم مـن شراسـة تلـك الجماعة إلا أنه اتضح لنا أنهم كانوا مهذبين" [١].

وتبين لهم أن هذه الجماعة من أصدقاء محمـد بـن عـروق، الذي سبق أن اصطحبهم من سوريا إلى حائـل. ويبـدو أنهـم كـانوا مندمجين مع مجتمعات البـدو فـي الـصحراء العربيـة لدرجـة أن ويلفريد تولى مهمة خطبة عروس لمحمد بن عـروق ودفـع مهرهـا خمسين جنيهاً إسترلينياً.

دخلت آن وزوجها مدينـة حائـل بعـد تـسعة أشـهر مـن دخول داوتي لها. وقد استقبلا استقبالاً يختلف عـن اسـتقبال داوتـي. فقد استقبلهما الأمير محمد بن الرشيد الذي تقلـد الحكـم فـي إمـارة جبل شمر، والذي وصفت آن ملامحـه بدقـة شـديدة. كمـا وصـفت ملابسه بأنها على أجمل ما تكون، وهو يحمـل عـدداً مـن الخنـاجر الذهبية وسيفاً ذهبياً مطعماً بالياقوت والفيروز.

---

[١] روبن بدول . الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية . ترجمة : عبد الله آدم نصيف (الرياض، ١٩٨٩) ص ١٣٥

أما سيدات القصر اللاتي استقبلن آن فلم يكنّ بأقل عظمة منه، فقد تزين بالسلاسل الذهبية المطعمة باللؤلؤ والفيروز، ويضعن على رؤوسهن صحناً ذهبياً تدلت منه اللآلئ، كما تدلى من أنف كل سيدة طوق ذهبي قطره بوصة تقريباً، وكن ينتزعنه قبل تناول الطعام [1].

لقد كانت مظاهر الثروة والعظمة واضحة في بلاط الأمير. وحين دخلت إلى مطبخ الأمير شاهدت سبعة مراجل يسع كل واحد بداخله ثلاثة جمال، وأخبرها أن ما يطبخونه من اللحم في كل يوم يبلغ أربعين خروف أو سبعة جمال لإطعام مائتي ضيف.

وحين زارت اصطبل الأمير وجدت ما يقرب من مائة حصان عربي أصيل، ودهشت حينما علمت أن العبيد يستعملونها. وكان في حوزة الأمير إحدى تلك اللعب المسماة تليفون، والتي انتشرت في أوربا قبل عام، ولم يكن بلنت قد رأى هذا الجهاز، فتقدم اثنان من العبيد ليرياه كيفية استعماله حيث وقفا متباعدين، وأخذ كل منهما يخاطب الأخر من خلاله.

بقيت آن وزوجها أسبوعين في حائل، ثم غادراها مع قافلة الحجاج الإيرانيين العائدين إلى بلادهم. وكتبت آن تقول: "**إن ما رأيته في حائل كان بلا شك أبدع شيء رأيته في حياتي**".

---

(1) روبن بدول ، ص ١٣٦، ١٣٧

VI

السيدة مابل بنت في البحرين وحضرموت

M. Bent

عام ١٨٩٠

VI

السيدة مابل بنت في البحرين وحضرموت

M. Bent

عام ١٨٩٠

في عام ١٨٩٠ قام السيد ثُيودور بنت T. Bent وزوجته السيدة مابل بنت M. Bent بالتنقيب عن المدافن الأثرية في البحرين، فحفرا مدفناً واحداً في منطقة عالي، وبعد نهاية الموسم أصدرا تقريراً عن نتائج أعمالهما، مزودا ببعض الرسوم وخارطة لجزيرة البحرين، تبين موقع مدافن عالي في القسم الشمالي من الجزيرة. وبعد عشر سنوات (في عام ١٩٠٠) نشرا تقريراً أخر يتضمن صوراً فوتوجرافية لمدافن عالي مع ذكر بعض اللقى وطرق التنقيب. وكانا قد أودعا هذه اللقى الأثرية المتحف البريطاني. وأشار السيد بنت في تقريره إلى أن سكان البحرين هم أسلاف الفينيقيين، معتمداً على ما ورد في كتب المؤرخين الكلاسيكيين ومنهم هيرودوت[١].

---

[١] منير يوسف طه، اكتشاف العصر الحديدي في دولة الإمارات (البصرة ، مركز دراسات الخليج العربي ، ١٩٨٩) ص ٢٠١

كانت جهود الكشف الأثرية في الخليج مقتصرة على المحاولات الفردية، ففي عام ١٨٧٨ لفتت كثرة المقابر القديمة في جزيرة البحرين نظر ديوراند E.L.Durande [١]. وفي عام ١٨٧٨ لفتت هذه المقابر نظر السيد والسيدة بنت، لأنها كانت تحتوي على غرف حجرية.

لم تكن السيدة مابل، زوجة ثيودور بنت، سعيدة أو محظوظة في رحلاتها كما كانت آن بلنت. فبينما كانت رحلات آن بلنت وزوجها من أجل المتعة، ومصادقة البدو في شمالي الجزيرة العربية، والتعاطف معهم، كانت رحلات السيدة بنت وزوجها في المنطقة الجنوبية عكس ذلك، فقد قضوا شهوراً من القلق والإحساس بالخطر، لسبب بسيط وهو أنه قيل لهم أن منطقة حضرموت قد تكون ذات فائدة للحكومة البريطانية، وأن عليهما أن يكتشفا أهميتها.

لقد بدأ رحلتهما في حضرموت في ديسمبر ١٨٩٣ وبصحبتهما مساح طبوغرافي هندي، وعالم نباتات بريطاني من كيو جاردن [٢] إلى الغرب من لندن، وعالم طبيعة مصري، ومترجم عربي وحراس من جنسيات مختلفة.

---

[1] عبد العزيز صالح ، الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث في شبه الجزيرة العربية (الكويت ، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ١٩٨١) ص ٥٦ و ٥٧

[2] كيو جاردن بها الآن مقر دار الوثائق البريطانية(PRO)، وهي أشهر دار وثائق في العالم تحتوي على مادة أرشيفية تخدم تاريخ الشرق الأوسط.

لم تكن رحلة سعيدة تماماً. صحيح أنها أنجزت كثيراً من العمل المهم، ولكن السيدة بنت وزوجها واجها مشاجرات كثيرة بين أعضاء الفريق، كما واجها تهديدات من الوطنيين. وتكررت مواقف الاحتكاك والتنافر والتوتر والملل، مما جعل هذه المرأة القوية تلغي فكرة استكمال رحلتها[1]، مع أنها حافظت على روحها المعنوية عالية، واستنفرت أعضاء الرحلة لتحقيق المغامرة التي كانت تتطلع إليها، ولم تفشل في أن تسجل أي شيء مثير أو مهم تلتقيه بالصدفة.

ولأن السيدة بنت كانت رحالة لا تعرف الملل، فإن المشاكل التي واجهتها لم تمنعها من أن تحاول تكرار تجربة الرحلة مرة ثانية بروح عالية وهمه ثابتة. وفي هذه المرة عادت وزوجها بمعلومات مهمة على نفقتهم الخاصة. ولكن قراءة ما كتبوه عن رحلتهم لا يبدو مسلياً، رغم أنه مثير، لأنهما لم يكونا متعودين على لهجة السكان في المنطقة، ولم يستطيعا أن يقيما اتصالات ودية قوية مع الناس، أو يقيما علاقات صداقة معهم، فقد كانت علاقاتهم بالناس متباعدة ورسمية وحذرة.

ولكن أهم ما يميز السيدة بنت أنها ظلت المرأة الأوربية الوحيدة (حتى عام ١٩٣١) التي خاطرت برحلة علمية استكشافية في أعماق منطقة غير معروفة تماماً، حتى ذلك الوقت، وهي المنطقة التي تقع خلف شواطئ الساحل الجنوبي للجزيرة

[1] Miss C. Draper , " Early Women Travelers in Arabia " .

العربية[١]. ووصلت البعثة إلى شبام، لكنها لم تتمكن من مواصلة سيرها إلى قبر النبي هود وبير برهوت، فعادت إلى المكلا.

ثم قام السيد والسيدة بنت برحلة ثانية إلى حضرموت الداخل عبر الهضبة المرتفعة التي تفصل الساحل عن وادي حضرموت إلى أن وصلا إلى منطقة مستوية جرداء لا حياة فيها[٢]. ولكن السيد بنت اكتشف بعض النباتات داخل الأخاديد من فصيلة نباتات اللبان والبخور والمر التي أهملها البدو، ويفسر تدهور الوضع الاقتصادي هناك إلى تدهور هذه الزراعات. ولكن اهتمامه بقي في المقام الأول معنيا بالمواقع الأثرية في وادي حضرموت.

وواصل بنت رحلته إلى وادي سر وقبر صالح، ثم عاد إلى الساحل، ووصف المنطقة التي مر بها بأن بها وفرة في الماشية وعسل النحل الطيب المذاق والرائحة، المستخلص من زهور النبق، وعاود بعثته إلى المكلا في شهر مارس ١٨٩٤. وجلب بنت مئات العينات النباتية خلال رحلتي عام ١٨٩٣ وعام ١٨٩٤ ومعظمها لنبتات البخور واللبان والمر والقطن البري، وأثبت أنها تماثل النباتات الموجودة في الصومال والحبشة.

---

(1) Miss C. Draper , " Early Women Travelers in Arabia " .

(٢) أحمد سعيد باحاج، الرحلات والدراسات الجغرافية لحضرموت (جدة ، مكتبة الجسر، ١٩٨٨) ص ٢٧

كما أشار إلى المؤثرات الهندية على الحياة في حضرموت، وخاصة في استعمال وصناعة الأسلحة والأثاث والحلي، حيث كان الحضارمة يهاجرون إلى جنوب شرقي آسيا، ثم يرسلون الأموال إلى ذويهم في حضرموت لتساعدهم في تخفيف شظف العيش [1].

توفي بنت عام ١٨٩٧ متأثراً بحمى الملاريا، عن عمر يبلغ ٤٥ عاماً. وقبل وفاته نشر سجلات رحلاته في حضرموت[2]. بينما تولت زوجته مابل نشر تفاصيل رحلاته في جنوبي الجزيرة العربية والسودان وسوقطرى في عام ١٩٠٠.

زارت مابل بنت وزوجها ثيودور مسقط في عام ١٨٩٤، وزارا السلطان ورصدا كل ما شاهداه، وتكلما عن الطبيب الأمريكي بول هاريسون، وعن البعثة الأمريكية هناك، وحكايات البعثة المضحكة [3].

وتعتبر مابل وزوجها أول الأوربيين الذين توغلوا في المناطق الداخلية لمسقط في عام ١٨٩٤، وقد جهزهما الحاكم بقافلة مع سبعة عشر شيخاً، أجرة كل واحد منهم نصف دولار في اليوم، ووصفهم بنت بأنهم كانوا رجالاً قساة، وأعجبت السيدة

---

[1] الهجرة اليوم عكسية ، فالهنود والآسيويون هم الذين يهاجرون إلى الجزيرة العربية .

٢ أحمد سعيد باحاج ، الرحلات والدراسات الجغرافية لحضرموت (جدة ، مكتبة الجسر، ١٩٨٨) ص ٢٨

[3] روبن بدول ، ص ١٩٤

بنت بمناظر الطبيعـــة الخلابـــة، ولـــم يتوقعـــا أن الجزيـــرة العربيـــة القاحلة بها مثل هذه المنـــاظر الخلابـــة، ويعتبـــر ذلـــك مـــن أعظـــم المفاجآت التي مرت عليهما في حياتهما.

ولم يكن السيد والسيدة بنـــت رحالـــة محتـــرفين، وبعـــدهما لا توجد رحلات ذات شأن في ظفار حتـــى أوائـــل العقـــد الثالـــث مـــن القرن العشرين[1].

---

١ روبن بدول ، ص ١٩٦

VII

جرترود لوثيان بل

في رحلة إلى شمالي الجزيرة العربية

Gertrude Lowthian Bell

عام ١٩١٣-١٩١٤

VII

جرترود لوثيان بل

في رحلة إلى شمالي الجزيرة العربية[1]

Gertrude Lowthian Bell

عام ١٩١٣-١٩١٤

جرت وقائع هذه الرحلة في شتاء عام ١٩١٣ - ١٩١٤. وعندما عادت، الآنسة جرترود بل منها إلى انجلترا قبل نحو ثلاثة شهور من نشوب الحرب العالمية الأولى، كانت مجهدة، ولم تكن قد استعادت عافيتها حين طلبت منها الحكومة البريطانية العمل في الخدمة العسكرية. وفي أواخر عام ١٩١٥ توجهت إلى القاهرة، وفي أواخر عام ١٩١٦ سافرت منها إلى البصرة.

ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاتها في عام ١٩٢٦، انشغلت جرترود بأعمال سياسية مثيرة في منطقة الشرق الأوسط، ولم تستمتع إلا بأيام قليلة خارج المهام الرسمية التي كلفت بها، وكانت في معظمها أعمال تتعلق بالجاسوسية؛ ولذلك لم تتمكن من كتابة رحلتها إلى حايل أونشرها، رغم أنه كان قد طلب منها أن تفعل ذلك في بغداد، ولكنها كانت تشكو من ضيق الوقت، وندرة المصادر، وغياب التسهيلات.

---

1. Gertrude Lowthian Bell , A Journey in Northern Arabia. **Geographical Journal**, vol. 44, no.1, (1914)

وقبل وفاتها كانت عازمة على العودة من بغداد نهائيا إلى انجلترا، لتكتب أدبيات رحلتها؛ خاصة وأنها كانت قد وضعت في الوقت نفسه المادة الكارتوجرافية، التي كانت قد جمعتها عن هذه الرحلة لدى وزارة الحرب (War Office) ولدى الجمعية الجغرافية الملكية (Geographical Society) أما معلوماتها الإجتماعية والسياسية فقد أرسلتها إلى جهاز الاستخبارات البريطاني المعني بشبه الجزيرة العربية والعراق وفلسطين.

فإذا وضعنا تلك الحقائق في الاعتبار مع إنجازاتها الفردية وقيمتها للعلوم الجغرافية والإثنوغرافية، لوجدنا مبررا لدى الدكتور هوجارث (D. G. Hogarth) ألا يتردد في أن يسأل ورثتها في أن يضعوا يومياتها وخطاباتها أمامه وأن يجمعوا محادثاتها كي يضع تصورا لرحلتها في شبه الجزيرة العربية. وقد نجح في ذلك.[1]

وصلت الآنسة بل إلى دمشق يوم ٢٥ نوفمبر ١٩١٣، آملة أن تحقق ما تطمح إليه من زيارة وسط شبه الجزيرة العربية، وأن تخترق نجد إلى حدود الصحراء العربية الكبرى في الجنوب ومنذ أن علمت أن مثل هذا المشروع لن يلقى قبولا من الحكومة العثمانية، ولا من ممثلي الحكومة البريطانية في تركيا، تجنبت الحديث إلى المسؤلين الرسميين خلال الفترة التي قضتها في دمشق قبل القيام برحلتها.

---

1. D.G. Hogarth, "Gertrude Bell's Journey to Hayil, "The Geographical Journal, vol. Lxx, No.1

وكانت بل قد آثرت أن تناقش مشروع رحلتها مع أصدقائها غير الرسميين، ومع بعض العناصر العربية التي يمكن أن تساعدها في مهمتها. ومن هؤلاء الوكيل المحلي لابن الرشيد أمير حايل، الذي يسر لها الحصول على بعض المال لدى وصولها إلى المدينة، وكذلك محمد البسام ابن أحد أصدقاء دوتي[1] C.M. Doughty من عنيزة الذي كان يعرف كثيرا عن وسط شبه الجزيرة العربية وممراتها.

كانت نجد هي القصد، كما هو واضح مما ذكرناه من كلمات الرحالة الدكتور هوجارث، الذي كان معجبا بشخصية الآنسة بل، والذي تبنى قضية كتابة رحلتها وقراءة أدبياتها في اجتماع الجمعية الجغرافية في ٤ أبريل ١٩٢٧، أي بعد وفاتها.

وإذ أضع ما سبق مقدمة لابد منها، أشير إلى أنني عثرت على الصفحات القليلة التالية منشورة باللغة الإنجليزية عن رحلة بل في المجلة الجغرافية الملكية، وأوثر هنا أن أسجلها في اللغة العربية كما هي طبقا لمتطلبات الأمانة العلمية.

عندما قررت ميس جرترود لوثيان بل أن تغادر دمشق في ١٦ ديسمبر ١٩١٣، مع علمها أنها قد تستوقف في الطريق، أو تجبر على العودة. فإنها قد حددت هدفها الأول بوضوح شديد. وسوف أترك لها الكلمات لتعبر عن نفسها.

[1] Doughty, C. M., **Travels in Arabia Deserta** (London,1923)

"كان هدفي الأول هو زيارة بعض الخرائب (المناطق الأثرية) الواقعة إلى الجنوب الشرقي من دمشق، التي لم يكن أحد قد رآها من قبل، أو أنها لم تدرس دراسة جيدة. فقد أعددت تخطيط مباني جبل سايس Sais التي يعود معظمها إلى العصر الإسلامي المبكر، وذهبت شرقا حتى برقة Burqa، وهي غير معروفة إلا بالاسم، حيث وجدت نقشين، الأول يوناني، والآخر كوفي مؤرخ بعام ٨٢ هجرية.

"وقد سمعت كثيرا عن قلعتين متشابهتين في اتجاه الجنوب، كانتا تقعان خلفي قبل أن أعرف بوجودهما. إذ كانت الحافة الشرقية لهذه المنطقة البركانية، الواقعة إلى الشرق من جبل حوران Hauran تحتاج إلى عملية كشف دقيقة، ولكن كان من الصعب تحديد الحدود في الأراضي الصخرية، التي لم يكن السكان فيها بدوا حقيقيين، وفصلها عن أراض يسكنها بدو يتمتعون بصفات الكرم والضيافة. فالمنطقة ليس بها ماء، فيما عدا مياه أمطار الشتاء، والسير فيها مجهد جدا، كما يعرف بذلك كل الذين يسيرون في المناطق الصخرية الجافة.

"وكنت قد خططت منطقة قصر الأزرق التي يوجد فيها نقشان يونانيان، حيث طمست قلعة عربية من العصور الوسطى (الإسلامية) وأخرى رومانية (من العصور الكلاسيكية القديمة)، وكنت آمل أن أجد شيئا منهما. ثم زرت مرة ثانية قُصير عمرة Qsair Amrah وخرانه Kharaneh ثم خصصت ثلاثة أيام لدراسة الأخيرة دراسة متأنية، فهي من الناحية المعمارية مهمة جدا للباحثين في فنون العمارة الإسلامية المبكرة.

وفي زيزيا Zizia على سكة حديد الحجاز، حيث ذهبت لاستلام البريد وشراء بعض الاحتياجات، أوقفني مسئولون في الحكومة العثمانية، ولكنني كنت قد أبلغت والي دمشق ببرنامج نشاطي، الذي يسمح لي بمواصلة السير في مهمتي (دون عقبات) كما قدمت للمسئولين العسكريين المحليين تأكيدات كتابية تفيد بأنهم هم وحكومتهم غير مسئولين عن أمني وسلامتي.

وعلى مدى الأسابيع الثلاثة التالية، عبرت كما هو مألوف الطريقين الذين سلكهما السيد كاروثرز[1] Mr. Caruthers واستعنت كثيرا بخريطته، وأنجزت بعض الأشياء في توبه Tubah وفي بير بعير Bir Bair. والأخيرة كان قد زارها السيد كاروثرز، ولكنه لم يسجل شيئا عنها، ولعلها ترجع إلى نفس الفترة التي تنتمي إليها توبه (أي القرن الأول الهجري). وبالقرب من هذا المكان توجد المقبرة التقليدية لأسلاف بني صخر. والمكان يجذب الاهتمام نظرا للطقوس التي لاحظناها هناك من جانب القبيلة (بني صخر). ولعلي أعتقد أن هذه الخرائب ذاتها كانت نزلا على الطريق إلى تيماء Taima.

وفي جبل طبيق Tubaiq وجدت محطة أخرى على طريق القوافل نفسه. ولم أذهب إلى تيماء خوفا من أن يُقبض علي هناك، وإنما تركتها على بعد يوم سفر في اتجاه الغرب، ودخلت صحراء النفود من الناحية الجنوبية الغربية، وسرت خلالها لمدة تسعة أيام، وكانت مراعي

---

[1] رحالة وكاتب في أدب الرحلات، وصاحب المقالة الموسومة:
Carruthers, D., "Captain Shakespear's Last Journey", **Geographical Journal**, LIX (1922)

الجمال جيدة، ولكن تقدمنا عبرها كان بطيئا؛ بسبب الرمال التي تغوص فيها أقدام الخيول، والتي كنا مجبرين على السير بمحاذاتها.

"وما أن تركنا صحراء النفود، حتى توجهنا نحو جبل ميسما Misma وجبل حبران Habran وهو من الحجر الرملي، أشكاله جميلة جدا، وتوجهنا إلى جبل رخام Rakham ولكن ذراعا طويلة من (صحراء) النفود كانت لا تزال ممتدة أمامنا، وعلينا أن نعبرها قبل أن ننزل إلى طريق (وادي) الجوف بالقرب من قنا Qna وأن نصل إلى حافة عجا Aja الجرانيتية، وفي اليوم التالي وصلنا إلى حائل.

"قضيت أحد عشر يوما في عاصمة جبل شمر (حائل) كان الأمير حينئذ خارج العاصمة، في إغارة على قبيلة الرولة Ruwalla ومع أن ممثلي الأمير استقبلوني استقبالا جيدا، إلا أنهم لم يكونوا راغبين، أو ربما غير قادرين، على أن يتركوني أتصرف بحرية كافية. وقبل أن أغادر سمحوا لي أن أصور فقط المدينة والقصر. ولم يكن من اليسير (في ظل هذه القيود) أن ألمس استقبالا طيبا من جانب السكان، وإن كانت علاقاتنا طيبة لم ينغصها شيء. ولقد تحدثت بشيء من التفصيل عن الأوضاع السياسية، فنفوذ آل الرشيد تضاءل منذ ١٨٩٣ عندما زار البارون نولد Nolde الأمير محمد.

"ومنذ ذلك التاريخ لم يزر أوربي حائل. وفي مراحل مختلفة كان نفوذ ابن سعود (عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود) يقوى، وهو الآن (١٩١٣) يعتبر أقوى شخص في قلب شبه الجزيرة العربية. فثورات القصر أصبحت أكثر خطورة على ابن الرشيد من خطورة الحرب مع

ابن سعود؛ فعبد العزيز ابن خال محمد قتل في معركة سنة ١٩٠٦، والأمر يشير إلى أنه اغتيل دون أدنى شك. وابنه، الأمير التالي، اغتيل على يدي عمه، الذي ذبح بدوره على يدي أخيه، وهذا الأخير ذبح على يدي أحد أفراد أسرة صبحان Subhan (التي شغلت على مدى طويل منصب الوزير الأول لابن الرشيد) الذي وضع ابن أخيه، الذي هو ابن عبد العزيز من موضي صبحان على العرش. هذا الولد (مسعود) لم يتجاوز سن السادسة عشرة، والذكور الآخرون الذين انحدروا من أسرة آل الرشيد، والذين بقوا في حائل، لا يزالون صغارا. ومنذ غادرت حائل، قتل الأمير أربعة من صبحان، وكان مستشاره الرئيس أحدهم، من منطلق أن له علاقات مع ابن سعود.

"لقد جئت إلى بغداد عن طريق الحرانية وآبار لوقة Loqah وواجهت بعض المشاكل مع مشايخ قبائل الشيعية على حدود الولاية. ومن بغداد عدت إلى دمشق عبر الصحراء السورية، وهناك وجدت مجموعات مستقرة من السكان، على غير المتوقع، وخاصة في القرة Qarah وسلكت طريقا كان مستخدما منذ العصور الوسطى بالقرب من بالميرا، وطريقا آخر من أيام الرومان، محددا بالحجر الجيري عبر جبال دمير Dumair وبقايا الخانات المدمرة، المشار إليها في خريطة كيبرت Kiepert على طول هذا الطريق من العصور الوسطى، وهي قليلة الأهمية. وفي النهاية وصلت عائدة إلى دمشق في اليوم الأول من شهر مايو ١٩١٤.

VIII

زيارة روزتا فوربس

لبلاد الإدريسي في عسير واليمن

Rosita Forbes

عام ١٩٢٢

VIII

زيارة روزتا فوربس

لبلاد الإدريسي في عسير واليمن[1]

Rosita Forbes

عام ١٩٢٢

نزلت روزتا فوربس بصحبة كامل فهمي في جيزان في نوفمبر ١٩٢٢، بعد أربعة عشر يوما من الإبحار على مركب (الضو) قادمة من بور سودان. وفي جيزان استقبلها مندوب الأمير (وقتئذ السيد السنوسي) وابنه، وكان الأمير على علم بزيارتها منذ فترة، وهي تصل الآن في عهد (خلفه السيد مصطفى). وفيما يلي ترجمتنا للوصف الدقيق لتلك المشاهدات التي سجلتها السيدة روزتا فوربس في عسير واليمن، والتي نشرتها لها المجلة الجغرافية بعد عشر سنوات من الزيارة في عام ١٩٣٢. تقول روزتا:

---

[1] Rosita Forbes, (Mrs. Mcgrath), "A visit to the Idrisi Territory in Asir and Yemen", **Geographical Journal**, vol. 62, (1932)

تعد "جيزان" إلى جانب "ميدي" أكبر ميناء في عسير، ويبلغ عدد سكانها حوالي ثمانية آلاف نسمة، وتجارتها نشيطة في مجال القهوة، وعسل النحل، والزيت، واللؤلؤ، والشعير، واللحوم.

وبيوت التجار والأشراف عبارة عن تجمعين كبيرين، مبنيين من الصخور المرجانية المغطاة بالمصيص، والمزركشة في بعض أجزائها برسومات بارزة. أما العامة فيعيشون في أكواخ مستديرة، مصنوعة من الأعواد الجافة، وأرضية الأكواخ مصنوعة من الطفلة، ومعظمهم فقراء ويعملون بالصيد. وأثاث الأكواخ يتكون من مواد مصنوعة من خامات من البيئة؛ فالسرير عبارة عن إطار من الخشب موصل بالحبال، والكراسي مصنوعة من ألياف ملوية من أشجار الدوم. وهذه جميعها مغطاة بالمراتب والسجاد في المناطق الساحلية، أما في الداخل فمغطاة بجلد الغنم.

ويدين الجزء الذي يقع تحت إشراف الإدريسي مباشرة من عسير بنفس مذهبه، على الأقل من الناحية الاسمية، ولا يتفق المذهب السنوسي مع متع الحياة، ويدعو إلى اتباع الشريعة الإسلامية، وإلى البساطة والتقشف والامتناع عن التفاخر بمظاهر الحياة الدنيا.

والغرباء سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهودا غير مسموح لهم بالنزول في عسير، ولهذا فإن الناس هناك ضيقي

الأفق ومتزمتين. ومن النادر أن يكـون هنـاك متعلمـون، ولا يوجـد بين شيوخ القبائل الذين قابلتهم من يعرف القراءة أو الكتابة.

الشريعة الإسلامية (على مـذهب الـشافعية) يطبقهـا القـضاة الذين لا يعلمون شيئا عـن المـذاهب الأخـرى، ولا توجـد محكمـة أعلى من محكمة الإدريسي الذي حصل علـى أعلـى الـدرجات فـي العلوم الدينية والفقهية من الأزهر، وينظر إليـه لا علـى أنـه صـانع السلام في غربي الجزيـرة العربيـة فقـط، ولكـن باعتبـاره أكثـر الرجال علما.

المدارس الوحيدة المتاحة للتعلـيم فـي عـسير هـي الكتـاب البدائي، الذي يديره شيخ يعتقد في أن العالم مربـع المـساحة، ويعلـم فيه القرآن والأحاديث النبوية ومبادئ الحساب الضرورية.

واليوم في عسير يبدأ وينتهـي مشمـسا، والأغنيـاء وحـدهم هم القادرون على دفـع ثمـن البتـرول المـستورد. وبعـد الغـروب بثلاث ساعات تدق الطبول لتحذير الناس من مغـادرة بيـوتهم حتـى الفجر.

القانون والنظام جيـدان جـدا فـي مخـلاف الـيمن، وفـي المناطق المحيطة مباشرة بمركز إدارة الإدريسي، الـذي يتنقـل بـين صـابيا وجيـزان. ولكـن علـى الـسائح، إذا كـان ذا أهميـة، أن يصطحب حارسا خاصا من بين أفراد القبائـل عنـد التجـول خـارج هذه المناطق.

وتطبق أحكام القرآن بدقة عند توقيع العقوبات. فالقاتل يقطع رأسه، والسارق تقطع يده أو قدمه، طبقا لنوع الجريمة التي ارتكبها. والزاني والزانية يدفنان في الرمل حتى أسفل الإبط ثم يرجمان حتى الموت. والمشاغب يغرم خمسة ريالات، أما الكذاب فيعاقب بلسع لسانه بالحديد الساخن. وتقام الصلاة خمس مرات في اليوم في العراء. أما التدخين فمحرم. ولا توجد مقاه ولا مراقص، وفرقة الدراويش الوحيدة التي رأيتها كانت في اليمن، التي يوجد بها حياة أكثر رفاهية من عسير.

لا توجد آثار في عسير، ومختلف العائلات بزعاماتها من السادة (جمع سيد) الذين كانوا أقوياء وقت الصراع الطويل بين الأتراك وبين الحسين (شريف مكة) في أبي عريش، صاروا يلعبون دورا ثانويا تحت حكم الإدريسي.

أما الأراضي التي يمارس الإدريسي فيها صلاحياته، فهي عبارة عن شريط يبلغ طوله ٢٧٠ ميل، يمتد من شمال بيرك Birk إلى الداخل حتى محايل Muhail، ثم يتجه خط الحدود جنوبا فيمر إلى الغرب من أبها (العاصمة التركية القديمة) بحوالي سبعة أميال، ثم يسير موازيا للشاطئ على بعد حوالي خمسين أو ستين ميلا، مارا بجبل سيرات Sirat، وجبل شاحيل Shahil، وجبل ملحان Milhan، وعند نهايته يتجه الخط غربا، مارا إلي الجنوب من مراوى Marawa حيث يصل إلى الجنوب قليلا من الحديدة.

عندما كنت في عسير، عقد الإدريسي معاهدة مع ابن سعود حاكم الرياض، بمقتضاها يضمن الإدريسي أمن حدوده الشرقية، وفي المقابل يحق لابن سعود تمرير بضائعه دون مقابل إلى موانئ عسير أو منها، وأن يرسل الإدريسي معظم الزكاة المفروضة على القطعان الحية إلى نجد المهددة بالمجاعة.

يعتبر الإدريسي [في الوقت نفسه] على علاقة طيبة بالملك حسين [ملك الحجاز]، بالرغم من أن الأخير كان يساند سرا محمد حسن بن عيظ Ibn 'Aidh والمتمردين ضده من قبيلة بني مغيد Bani Mugheid. وفي قفل Qufl وجبل ملحان وجبل ريما كان الأمير مشغولا ببعض الاضطرابات الخفيفة مع الإمام يحي في صنعاء، الذي يحتل مناطق الجبال العالية، ويهدد منها الإدريسي في المناطق الجنوبية من عسير حتى صعده.

على كل حال تحالفت قبائل الهشيد Hashid والبكيل Bekil القوية مع الإدريسي لتؤكد تحالفه مع ابن سعود، في حالة إذا ما حاول الأخير التدخل في اليمن.

في ذلك الوقت كان الإدريسي يملك في الميدان خمسة عشر ألف رجل، يقفون على الحدود ضد الإمام وضد قبيلة الزرانيق القراصنة، الذين يقيمون عبر حدوده الجنوبية. ولكن من الممكن في حالة الطوارئ أن يجهز ثلاثين ألف رجل، لأننا نقدر عدد السكان الخاضعين لحكمه بحوالي مليونين، وأن العائد

من الجمارك حوالي ١٢٠ ألف جنيه إسترليني في العام الماضي وأن ضريبة العشر تبلغ حوالي ٢٠٠ ألف جنيه إسترليني.

ويحكم الإدريسي عسير بمعاونة واحد وعشرين أميرا، لهم صلاحيات مدنية، وكل واحد منهم مسئول عن مقاطعته، ولكن القوة الحقيقية مركزة في يد الإدريسي نفسه، وطالما أن كل شيء يحال إليه وهو في صابيا، فإن أسلوب الحكم يتم عن طريق المراسلات بين العاصمة ومدن الأقاليم، بواسطة رجال يتنقلون بالجمال.

تقع صابيا على طريق للسيارات، وتبعد حوالي سبعة وعشرون ميلا تقريبا إلى الشمال الشرقي من جيزان. ويبلغ عدد سكانها بما في ذلك القرى المجاورة حوالي عشرين ألفا، وتنقسم إلى مدينتين منفصلتين، قائمتين في ظل تلين مسطحين صغيرين، أقوا يمنية وأقوا شامية، ويقال إن الزمرد يوجد بهما. وتقع المدينة القديمة التي تتكون في أغلبها من نفس النوع من الأكواخ التي سبق وصفها في جيزان (العريش أو الأكشاك) أسفل جبل شامية. وتنمو المدينة الجديدة التي تأسست طبقا لرغبات الأمير في حجمها وأهميتها. وقد بنى الإدريسي ووزيراه يحيى ذكري (من فرع الحاكامي Hakami من بني مساريحة) ومحمد يحيى بساحي Basahi (وهو رجل ماهر جمع ثروة عظيمة على حساب الدولة) بنى الثلاثة لأنفسهم منازل ضخمة من الطوب اللبن ومن الحجارة والبلاستر. ويدفن السيد أحمد الإدريسي

(مؤسس الطريقة الأحمدية) في صـابيا تحـت قبـة صـغيرة، وهـي مزار متميز يسبب القلق (للأرثونكس) من المسلمين.

وبالرغم من قضاء تسع سـاعات فـي المناقـشة، التـي لـم يقطعها إلا خمس أكواب من الشاي الأخـضر التـي يختلـف الواحـد منها عن الآخر، رفض الأمير السماح لنـا بالاتجـاه شـمالا، ولهـذا أقنعنا أنفسنا بالترحـال جنوبـا وشـرقا. هـذا الحـزام مـن تهامـة المسطحة أو المتموجة، (تبدأ منه الـتلال فجـأة دون مقـدمات كمـا هو الحال في جبال الحجاز) يقطعه عدد من الوديـان المتجهـة نحـو الساحل والتي تتسع كلما اقتربت منـه. وكمـا رأيتهـا مـن الـشمال إلـى الجنـوب هـي : وادي ظمـد Dhamad ووادي جيـزان المتصل بآبار حفائر Hafa'ir الذي يزود الميناء بالميـاه مـن علـى بعـد ميلـين، وادي خلـب Khulab، ووادي دمـاغ، ووادي تعـشر Ta'shar، الذي يبلغ عرضه ثلاثـة أميـال عنـد الـساحل، ووادي حيران، ووادي حبـل Habl وهـو خـصب ويملكـه الـشيخ سـيد مساعد أحد أثريـاء عـسير، ووادي بهيـز Baheis، ووادي عـين، ووادي مور، ووادي سردود، ووادي لُبيس بالقرب من الحديدة.

يعد وادي جيـزان أكثـر هـذه الأوديـة كثافـة فـي عـدد السكان، وهو يضم في الثلاثة وعشرين مـيلا الأولـى مـن ناحيـة البحر تسع قري ومدينة أبو عـريش المميـزة. وتقـع ثمـاني قـرى إلى الداخل، تضم كل واحدة منها ما بين أربعـة عـشر إلـى مائـة

كوخ مبنية من الأعشاب، بها عدد من السكان يبلغ ما بين خمسين إلى خمسمائة نفس.

توجد الأرض الزراعية في الأودية، حيث رأينا الذرة، والدخن والسمسم، وأنواعا عديدة من الخضراوات، والقنب، والفول، وحيث ترتفع الأرض يزرع القمح وبعض الشعير، وفي السهول توجد القهوة، والموز، والورد، والعنب، واللوز، والببايا، والسفرجل الهندي، والشمام. ويزرع الأرز في إقليم وعزات، أما القطن فتزرعه قبيلة حشبيرة Hashabira.

وتحمل كل الفئات المحاربة في عسير خناجر مصنوعة محليا، وأغمادها (جمع غمد) مصنوعة من الذهب أو الفضة، ومقابضها من القرن (العظم) مطعم بالأحجار الكريمة ...

سكان المدينة ينقسمون إلى أشراف وتجار، معظمهم هاجر إليها من حضرموت. أما المولدون (المخلطون) فيشكل معظمهم الدم الأسود، ولكنهم يصرون على المطالبة بحقهم باعتبارهم عربا. أما العبيد فمعظمهم من الحبشة أو الصومال. أما الأخدام akhdam فمن غير المسلحين ويعملون حمالين، قادرين على حمل ٥٠٠ رطل. أما اليمنيون فلا يعملون خدما ولا عبيدا، ولكنهم نحاف، عظامهم صغيرة، حالقي الذقون، صفر الجلد، يلبسون فوطة مخططة، وطاقية، وسيف. وفي اليمن يقولون: إن النساء والبربر واليهود يمكنهم الترحال بأمان رغم أنهم غير مسلحين، ولكنني لم أر أي يهودي إلى أن وصلت إلى

الحديدة حيث وجدت مجموعة من الفقراء اليهود معظمهم من صنعاء. مسموح لهم بارتداء قمصان تشبه قمصان النوم، وغير مسموح لهم بالجلوس في حضرة النبلاء العرب.

أما حرس الأمير فيتكون من خمسمائة رجل مختارين بدقة من أبي عريش وصابيا، وهؤلاء يعتبرون من خيرة العناصر العربية النقية في البلاد. الرجال صغيرو الحجم ونحاف، جلودهم بلون الزيتون، ملامحهم رقيقة، أنوفهم طويلة، جباههم حسنة، يسرحون شعورهم إلى الخلف، ويجمعونها في خصلات تطرح على أحد الجانبين.

وتتفق ملامح البدو على الساحل مع ملامح سكان المدن، وفي الداخل يوجد عديد من الأشكال، والرجال أكتافهم عريضة، وضخام الجسم، ويبدون غير متحضرين كسكان وسط إفريقيا، ملامحهم قاسية، شعورهم مجعدة تختفي جباههم تحتها، ومعظم هؤلاء من سكان جبل حوراس Huras أما البدو في تهامة فلا يرتدون شيئا عدا ما يستر عوراتهم، وبعض الأعشاب المثبتة على رؤوسهم، ويدهنون أجسادهم بالزيت، ويحملون رماحا طويلة. هذا وتوجد بالبلاد بنادق صناعة إنجليزية وألمانية وإيطالية، تبلغ قيمة الواحدة منها جنيها واحدا كحد أقصى.

وباستثناء سكان الجبال الكبرى مثل هشيد Hashid وبكيل Bekil فإن معظم البدو أنصاف وثنيين، متوحشين، مخلوقات بدائية، يضعون أحجارا سوداء كتمائم، إنهم مسلمون

فقط بالاسم، وليس لهم مذهب أو طريقة معينة، لقد رأيتهم يصلون وظهورهم إلى مكة، أو يتجهون عن قصد إلى الشمس، إن هناك ما يشبه عبادة الطبيعة، ويعتقدون في الفأل والغول والجن. أما سكان السهول والمنحدرات الجبلية فهم عناصر رقيقة، جلودهم سوداء، ملامحهم رومانية، ومعظمهم زيدية (شيعة).

وفي مدن تهامة وجدنا كثيراً من الطرق الدينية مثل: الرشيدية، والقادرية، والشادرية، والمغانية، والرفاعية، ومع كل هذه الطرق لا يوجد إلا القليل من الحماس الديني الحقيقي. لقد جعلت كراهية هؤلاء الناس للأجانب والغرباء رحلتنا صعبة بين القرى، وكانت أشبه بصدام مستمر معهم، ويرجع ذلك إلى الوساوس والشكوك في الأجانب، أكثر من إرجاعه إلى التعصب. فقد كانوا دائما يرددون "هؤلاء ليسوا من بني آدم"، بدلا من أن يقولوا "هؤلاء ليسوا مسلمين". ومع ذلك فقد كنت أبدو كامرأة عصرية ترتدي الزي المحلي، ولكنني كنت أسمع من الحريم على وجه الخصوص إساءات لغير المتدينين وخاصة المسيحيين. والمرأة العسيرية من الطبقات العليا محافظة أكثر من أي امرأة في البلاد العربية التي زرتها، فيما عدا الكفرة (ليبيا)، فهن لا يتركن منازلهن إلا ليتزوجن أو يدفن بعد الموت.

وينظر سكان المدن إلى البدو على أنهم متخلفون وذلك بالرغم من أنهم يعتمدون على كثير من احتياجاتهم الغذائية منهم.

فأعداد كبيرة من قطعان الأغنام والماعز والجمال الصغيرة القادرة على حمل سبعمائة رطل، جميعها ملك للبدو الذين يملكون الأرض أيضا. والفدان الذي يكبر الفدان المصري قليلا، يساوي حوالي ١٠٠ - ٣٠٠ دولار. وينتج الفدان ثلاثة محاصيل من الذرة في العام، كما ينتج حوالي ١٢ – ١٥ أردبا في منطقة الوديان، ولما كانت البلاد غنية بالقمح واللحوم الحيوانية، فإن أسعارها رخيصة. والجمل يساوي أربعة جنيهات إسترلينية، والخروف يساوي ستة شلنات، أما الذرة فإن كل ٣٢٥ رطلا تساوي أحد عشر شلنا. وتستورد الحمير الصغيرة الرمادية اللون، والتي تشكل وسيلة المواصلات الرئيسية هناك؛ لأن أنواع الخيول المحلية صغيرة الحجم وهزيلة، أما الخيول الجيدة فتأتي من نجد، وفيما عداها لا يوجد في البلاد خيول جيدة.

لا توجد طرق ممهدة، ولكن توجد دروب على طول الساحل، على بعد ياردات قليلة من البحر، ويسير عليها الأمير بسياراته الفورد الأربعة، وعلى بعد عشرين ميلا في الداخل، يوجد درب آخر يصل ما بين صابيا وأبي عريش وحرض وزهرة وزديا حتى الحديدة. وفيما عدا ذلك فإن الاتصال ضعيف جدا بين المناطق الأخرى، فيما عدا مجموعة القرى الموجودة التي تشكل واد من العمار. ولعل شيخ إحدى القرى الصغيرة لا يكاد يعرف أسماء مشايخ القرى المجاورة لقريته على بعد بضعة أميال، وأفق هذه القرى ضيق إذ ينتهي عند حواف الجبال الرملية، وراء التلال العالية المجاورة.

لم نر حيوانات غير أليفة، فيما عدا الغزلان، ومن الطيور رأينا الصقور والغربان وغيرها.

وكلما اتجهنا جنوبا نحو اليمن تتغير طبيعة شخصية البلاد. القرى تتكون من أكواخ من القش تشبه مثيلاتها الإنجليزية، مقواة بأغصان وأعشاب جافة من أشجار السدب والسنط. ويتخلل الصحراء مناطق للأعشاب الخضراء كما يوجد كثير من الزهور البرية. وفي بعض المناطق تنمو النباتات الطويلة على ارتفاعات تظل المارة. هذا في المنطقة التي تضيق فيها تهامةعند جبل ملحن والساحل، ثم تختفي عند وجود الأرض الخصبة في وادي سردود.

أما المناخ فلا يختلف كثيرا خلال الشهور التي قضيتها هناك في تهامة. تبلغ درجة الحرارة وقت الظهر حوالي ٨٤° ف، ولكن نسبة الرطوبة دائما عالية، وهي ناتجة عن رياح جنوبية رطبة تسبب ضيقا في التنفس، وتنخفض درجة الحرارة درجتين أو ثلاثة وقت الفجر، ويبلغ متوسطها حوالي ٧٥°- ٧٦° ف. أما موسم المطر ففي يونيه ويوليه وأغسطس، حيث يبدأ موسم الرعي بعد ذلك مباشرة. توجد بعض الرخات في فبراير ولكن لا يعتمد عليها.

الحياة في شمالي اليمن تختلف عنها في عسير؛ نتيجة لتخزين اليمنيين للقات. تنمو نباتات القات على ارتفاع أربعة آلاف قدم، وتحتوي أوراقه على نسبة عالية من الكافيين، وتحمل

أنثى الجمال الصائمة الصغيرة كميات القات كل يوم من أعلى الجبل إلى الوادي حيث يستهلكه سكان المدن. وجميع السكان من الرجال يدخنون الشيشة. وينفق الرجل الغني حوالي جنيها إسترلينيا في اليوم على القات. ويهتم الناس بشراء بعض أوراق القات، ولا ينامون إلا في وقت متأخر من الليل، ويترتب على ذلك ألا يقوم الناس لأعمالهم إلا في وقت متأخر من اليوم التالي بعد أن تنتصف الشمس في السماء، وإن أي شخص يريد أن يسافر بسرعة عليه أن ينتظر حتى بعد الصلاة الثالثة (العصر) حين يكون تأثير القات عاليا. ويبدو أن القات يغير من طبيعة الناس، فالبساطة والأخلاق والحزم في السلوك والانضباط الموجود في عسير لا يجد له مكانا في شمالي اليمن. وأحد السادة الكبار في السن عد لي حوالي مائة زوجة، لأن الطلاق مباح في الإسلام وقد جعلوه عادة في شمالي اليمن إلى الجنوب من ميدي.

توجد بعض المناطق المقدسة في المنيرة ومراوى والمنصورية وقطيع ولها مناصيب (حراس) وهؤلاء لهم قوة غير تقليدية. المساجد مثل تلك الموجودة في لاحيا كبيرة ولها عديد من القباب.

لقد تنقلنا بين مجموعة من الآثار على طول رحلتنا. وفي منطقة ابن عباس توجد لوحة مكسورة مكتوب عليها بالخط المسماري. وفي ميدي يوجد تمثال لبقرة من المرمر. وفي حرض توجد تماثيل لكلاب كثيرة بأحجام متفاوتة من الأحجار

التي كشف عنها. أما العملات من أيام سبأ وحمير فنجدها باستمرار من حين لآخر. وفي منطقة الرعي على بعد ميل واحد من ميدي توجد مقابر الأشراف المسلمين، ولها شواهد من الرخام بأطول ٣×٨ أقدام فوق الأرض، والقبور نفسها محددة بأنواع أخرى من الأحجار.

IX

كورنيلا دالنبرج في جزيرة العرب

١٩٢٥ - ١٩٢٢

IX

كورنيلا دالنبرج في جزيرة العرب[1]

١٩٢٢ - ١٩٢٥

مقدمة

لعل من أهم ما يمكن أن نقرأه في كتابات الرحالة من النساء هو أنهن كن يجبن لأماكن قد لا يصل إليها الرجال، فيصفن لنا أماكن غير مرئية، ويقدمن تقارير قد لا تكون صحيحة تماماً، ولكنها على الأقل تعطي انطباعاً تشكل لديهن فور الزيارة.

وفيما يلي جوانب من الصورة التي رسمتها كورنيلا دالنبرج لرحلتها من أمريكا إلى الهند، ثم إلى عدن، في طريقها إلى البحرين، ثم في البحرين والقطيف. وفي هذه الصورة تكشف كورنيلا عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في هذه المناطق في مرحلة ما قبل النفط، وأثر قدوم البعثات التبشيرية على إحداث تغييرات اجتماعية وثقافية، وأثر قدوم شركات النفط وما أحدثته من تغييرات اقتصادية، وتزامن ذلك مع استخدام الراديو والبث الإذاعي، وأثر ذلك كله في إحداث تغييرات جوهرية على كافة المستويات، وبخاصة على مستوى المرأة.

---

[1] عن: خالد البسام، مذكرات شريفة الأمريكانية، (المنامة، بانوراما الخليج، ١٩٨٩)

أما كورنيلا فهي واحدة في العديد من مجموعــات الإرســاليين الذين جاءوا إلى البلاد العربية كأطباء، أو ممرضات، أو مدرسات، باسم الكنيسة الإنجيلية الإصلاحية في الولايات المتحدة، للعمــل فــي الــبلاد العربية، لتلبية الاحتياجات الأساسية للإنسان العربي في منطقة الخلــيج، حيث لم يكن هناك أية برامج طبية أو مستشفيات أو مــدارس. عملــت كورنيلا ممرضة في البعثة الأمريكية في البحرين، وسجلت تجربتها في البحرين في كتاب نشرته في مطلع عام ١٩٨٣ تحت عنوان "*مــذكرات شريفة الأمريكانية*".

التحقت كورنيلا بمدرسة للتمريض لإشباع هوايتهــا فــي هــذا المجال، وكانت في نفس الوقت متحمسة للتبشير، فكما تقول "كانت بذور هذا الحماس تلازمني منذ الصغر"، وتضيف: "كانت قريتنا الهادئة ساوث هولاند South Holland مقراً للجالية الهولندية النازحة إلى الولايــات المتحدة، وكانوا جميعاً من المتمسكين بالدين وتعاليمه؛ فيوم الأحد لم يكن يوم راحة وفسحة، وإنما يوم للعبادة، وفي ذلك اليوم كانت أمي تزودني بكتب التبشير لأتسلى بها". "ولم يكن يستهويني أكثر من كتاب *الجزيــرة العربية مهد الإسلام* للدكتور صمويل زويمر، *والرحلة التبشيرية إلــى الصين* للكاتب هوسوف تيلر".

وذات مرة، وكورنيلا لا تزال تدرس التمريض، لاحظت علــى باب إحدى الكنائس إعلاناً، يدعو الممرضات إلى اجتماع فــي الكنيــسة نفسها مع زوجة القس، راعي الكنيسة، والتي ستتكلم فيه عن تجربتهــا كممرضة في الجزيرة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى. كانت تشعر

بأن شيئاً يشدها دائماً إلى الجزيرة العربية، وإلى اسم الدكتور صموئيل زويمر، الذي كانت معجبة به أشد الإعجاب. فحضرت الاجتماع ملبية الدعوة، وكانت هذه اللحظة نقطة تحول في حياتها. فقد تحدثت مع زوجة القس عن رغبتها للذهاب كممرضة إلى الجزيرة العربية، ولكن زوجة القس نصحتها بالحديث إلى والديها، وإبداء الاستعداد للذهاب كممرضة ومبشرة، كي تضمن لها الذهاب إلى جزيرة العرب، ووافق والديها، وهم يعلمون أنها لن تعود إليهم قبل سبع سنوات. وتمت الموافقة على سفرها ضمن البعثة التبشيرية إلى البحرين.

الرحلة إلى البحرين

وفي شتاء عام ١٩٢٢ بدأت كورنيلا الاستعداد للسفر إلى البحرين، حيث غادرت نيويورك في ٢٤ أكتوبر على متن السفينة "سيتي لال تاو" التي كانت تقل أفراد الإرسالية الأمريكية إلى بلدان الشرقين الأدنى والأقصى، وكان على متنها سبعة وثمانون فرداً من أفراد الإرسالية، كان معظمهم في رحلتهم الأولى مع الإرسالية. وما أن وصلت السفينة إلى الساحل الشرقي للبحر المتوسط حتى ودع ركابها المجموعة المتوجهة إلى سوريا ولبنان، وفي بورسعيد ودع الباقون المتوجهين إلى أفريقيا.

وكانت هذه أول مرة تتعرف فيها كورنيلا على العرب، وأول مرة تسمع فيها اللغة العربية من الحمالين، الذين أنزلوا الأمتعة على الأرصفة، ومن الحواة والسحرة، ومن المتجولين على أرصفة الميناء ليعرضوا سلعهم للبيع. تقول كورنيلا: "مررنا بقناة السويس والملاحات

(البحيرات المرة) ومنها إلى البحر الأحمر، حيث كان الطقس يتغير بسرعة، وشعرنا بالحرارة تزداد يوماً بعد يوم...(ثم) توجهنا إلى كراتشي، حيث انتقلنا من سفينتنا العابرة للمحيطات إلى سفينة تجارية أصغر، تعمل بالبخار متوجهة إلى الخليج... ثم مررنا بميناء بومباي، حيث نزلنا نشتري حاجياتنا، مثل ناموسية لسريرنا الصيفي فوق السطوح، ومدفأة متنقلة تعمل بالزيت، وأصبحت الرحلة في عداد المنتهية، حيث لم يبق لنا سوى ٤٩ يوماً للوصول إلى وجهتنا (البحرين)".

تقول كورنيلا "كنت أنا ورفيقاتي الثلاث : روث، راتشل، كيلن، الوحيدات اللواتي احتللن الدرجة الأولى على السفينة التجارية الصغيرة المتوجهة إلى الخليج، وكان بعض الهنود في الدرجة الثانية، أما العرب فقد كانوا على السطح طوال الرحلة، ليبقوا مع حيواناتهم من الغنم والجمال والحمير والدجاج... وكان المسافرون على السطح يفضلون ذلك، ليتسنى لهم اصطحاب حيواناتهم، التي تزودهم باللحم الطازج طيلة الرحلة، لأن السفينة لا تزودهم بالطعام، وكانوا يذبحون الدجاج أو الأغنام كلما احتاجوا لأكل اللحم، ويستخدمون مواقد الفحم لطهيه... وكانت السفن الشراعية تأتي إلينا في كل ميناء نقف عنده لتزودنا بالطعام، ولتأخذ الركاب المغادرين".

نزلت كورنيلا في ميناء عدن، حيث توقفت السفينة ليوم كامل، وحيث زارت الجالية التبشيرية الدانمركية الموجودة هناك، وكانت هذه الزيارة بالنسبة لها "الصدمة الحضارية الأولى"، كما كانت إعداداً نفسياً

لها، لما كانت تتوقعه أثناء زيارتها لمسقط والبحرين فيما بعد. وكان أكثر ما يخيفها ويقلقها الجو الحار، وحالات الوفاة بين المبشرين، الذين يأتون إلى المنطقة لأول مرة.

كان جبل دخان، الذي سمي كذلك لتغطيته بالضباب عند أعلى القمة، أول ما لفت نظر كورنيلا لدى وصولها إلى البحرين. وأمام الساحل، رست السفينة، على بعد ثلاثة أميال من الشاطئ البحريني، وخرجت المراكب الشراعية الراسية بالقرب من الشواطئ لاستقبالنا. وبينما عبّرت زميلاتها عن فرحتهن بالوصول إلى محطة النهاية، احتفظت كورنيلا بتعليقها لنفسها. كانت كورنيلا ترتدي ملابس شتوية، لم تعد ملائمة للطقس البحريني الدافئ شتاءً، بينما كان مستقبلوها من المبشرين يرتدون الملابس الصيفية (السيد بول هاريسون وزوجته والسيد بيننج) وقالت السيدة هاريسون للقادمات الجدد: "إنكن بحاجة إلى أسماء عربية؛ لأن الجميع هنا لقبوا أنفسهم بأسماء عربية، ليتسنى للأهالي العرب النطق بها بدلاً من الأسماء الأجنبية الصعبة، عندئذ أطلقت السيدة هاريسون اسم "شريفة" على "كورنيلا".

كورنيلا في البحرين

وعند الشاطئ تصادف وجود المد (ارتفاع منسوب الماء)، وإلا فقد كان على شريفة (كورنيلا) السير في المياه الضحلة إلى الشاطئ؛ أو ركوب الحمير لمسافة ربع ميل، فلم يكن بالبحرين ما يعرف بالميناء. تقول شريفة: "ونزلنا إلى الشاطئ، وتجولنا عبر الممرات (الحارات) الضيقة، حتى وصلنا إلى منطقة السوق، حيث عبقت أنوفنا رائحة التوابل

والبهارات، وبعدها توجهنا إلى منطقة بيوت الإرسالية المحاطة بالأسوار. وإلى جانب الكنيسة، كان هناك مستشفى الإرسالية، ومنزل المبشرين، الذي يسكنه الدكتور هاريسون. كان المبني من الحجارة البيضاء البحرية، وحوله بضع أشجار نحيلة الأغصان، وبالقرب منه مجموعة أخرى من بيوت الإرسالية، حيث توجد غرفة الاجتماعات، وهناك تناولت الشاي الذي "كان أسوأ شاي شربته في حياتي، فقد كان مالحاً ومراً".

بدأت شريفة تتعلم اللغة العربية، اعتباراً من اليوم التالي لوصولها، على يدي المعلم نصيف، وهو مسيحي أرمني، تثقف في الإرساليات الأمريكية في تركيا، وجاء إلى البحرين اعتباراً من عام ١٩١٢، حيث كان من الصعب وصف الحياة في البحرين، "فالأطفال في الشوارع دون رقيب، ومن الصعوبة أن تجد رجلاً أو إمرأة أو طفلا متعلماً، يستطيع القراءة والكتابة". وكان الأطفال يتبعون المبشرين ويرددون: "المسيحيين كفار"، وكانت "النفايات تملأ الشوارع، والذباب يتطاير في كل مكان". وهكذا استقبلت شريفة في البحرين بما لم تكن تتوقعه، وكانت أولى انطباعاتها قد تشكلت عندما توقفت في عدن.

كان المستشفى يتكون من طابقين، مبني من الصخور، ويتسع لثمانين مريضاً في أروقته وفي غرفه الخاصة، ولكن الواقع كشف عن أن العدد أكبر من ذلك دائماً. وكان أقارب المرضى يقيمون مع المريض في المستشفى، وخاصة إذا كانوا قادمين من مناطق بعيدة، وكانوا يحضرون معهم الدجاج والغنم إذا قرروا البقاء لبضعة أيام، كما كان

يفعل ركاب السفينة التي استقلتها ما بين الهند والبحـــرين. وذات مـــرة حضر إلى المستشفى أحد الشيوخ ومعه قطيع من الماشية، حيـــث أمـــر ببناء قفص لأغنامه في شرفة غرفته. وكان الطبيب يحاور الشيخ ويقنعه بأن الحيوانات غير مسموح بها في المستشفى، ومع أن الـــشيخ حـــاول استخدام سلطته لتحقيق رغبته، إلا أن الطبيب أصر على موقفه، ولمـــا كان من غير اللائق أن ينهزم الشيخ أمام الطبيب، فكر الأخير في إعداد حظيرة من جريد النخيل خلف المستشفى، وهي فكرة رحب بها الشيخ.

وفي بعض الأحيان كان المرضـــى يطلبـــون مـــن ممرضـــات المستشفى وأطبائها تشخيص المرض فقط، حيث يذهب المـــريض بعـــد ذلك ليعالج نفسه على طريقته بالطب الشعبي. وكثيراً ما كانت عمليـــات الولادة تجري في آخر لحظة، وأحياناً كانوا يخرجون جثة المرأة الحامل بعد الدفن؛ لأن الجنين ربما كان لا يزال على قيد الحياة.

وذات مرة جاء شريفة رجلان يطلبان مساعدتها لامرأة مريضة في جزيرة "سترة". وحين طلبت إليهما إحضارها للمستشفى، أصرا على ذهابها هي إلى حيث ترقد المريضة، التي كانت حالتها سيئة. وسترة هذه جزيرة صغيرة تقع إلى الجنوب الشرقي من الجزيرة الأم (البحـــرين)، ويربطها بالجزيرة الأم جسر صغير من الخشب. تقول شريفة "وقطعنـــا الجسر وعبرنا الطريق عبر ممر رملي حيث وصلنا إلى بستان نخيـــل وقرية صغيرة... حيث كانت المريضة قابعـــة داخـــل أحـــد الأكـــواخ المظلمة، وجهها شاحب وتقطر عرقاً"، كانت في حالة وضـــع، وكـــان الجنين قد مات منذ عدة ساعات.

وفي حكاياتها عن نشاطها الاجتماعي والتقائها بالنساء البحرينيات، تقول شريفة: كان النسوة راغبات في تعليمها اللغة العربية، وكن يستثمرن ذلك بتعليمها أسماء الطعام والفاكهة التي تقدم إليها أثناء الزيارة، وكذلك الأواني التي تستخدم في هذا الغرض، والوسائد والمخدات التي كن يتكئن عليها أثناء الجلوس. وكانت الضيافة تتضمن المشروبات والحلويات والكعك والتمر والخوخ المعلب والأناناس المعلب، والشاي المحلي، وفي النهاية تأتي القهوة العربية في فناجين بغير مقابض. وتنتهي الزيارة عندما يمر الخادم ومعه المبخرة. "وعند الخروج نرش أنفسنا بماء الورد".

كانت تلك الزيارات "ممتعة ومفيدة" في التعرف على طبائع العرب،"فبفضل مساعدتهم لنا في اللغة تحسنت حصيلتنا اللغوية، وازدادت قائمة معاني الكلمات التي أصبحنا نعرفها... ومعرفتنا عن المرأة العربية تعمقت واتسعت من خلال هذه الزيارات، فقد بدأنا نجد فيها صفات وخصال حميدة عهدناها في أصدقائنا في أرض الوطن". وتضيف شريفة: "لطالما اندهشت لشدة كرم ضيافتهم التي تأتي بشكل عفوي ودون أنانية، فهم لا يتوقعون مقابل، ويعتبرون أي محاولة أو حتى تفكير في ذلك إهانة لهم، وحين أفكر في استضافة أحد العرب في أمريكا أدرك أن الضيافة الأمريكية ستكون مقصرة للغاية".

وفي البحرين توجد أماكن مخصصة للحريم في البيوت، وفكرة تخصيص مكان للحريم فكرة قديمة، وأصبحت جزءاً من حياة العربي كما أراد لها الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن تكون، طبقاً للتعاليم

الإسلامية. وفي مكان الحريم تضمن الزوجات الأربع للرجل وجارياته الحماية، كما أن تغطية وجوههن تعتبر إحدى وسائل الحماية للمرأة من أي إنسان غير زوجها. وظاهرة الحجاب هذه من خصائص الحياة المدنية للمرأة المسلمة. والأمر مختلف في حياة نساء القرية، فالنسوة القرويات يمشين سافرات، تماماً كالبدويات في الصحراء.

وفي مناسبة عيد رأس السنة (الكريسماس) أعدت الإرسالية العشاء للعائلات العربية الفقيرة وتلك المجاورة لمجمع الإرسالية، وكانت مائدة ذات شهرة بين الأهالي، الذين كانوا يرغبون في حضورها، وكانت الوجبة تتألف من الأرز واللحم والتمر، وهو مماثل لما يقدم في دعوة عربية مماثلة، وتضيف شريفة: "ولو أننا اخترنا تقديم طعام أمريكي، فإن المدعوين لن يستحسنوه". كان النساء يجلسن في مكان بعيد عن غرفة الرجال عند تناول الطعام، الذي يقدم في صينية كبيرة مملوءة بالأرز واللحم، حيث كانت توضع كل صينية وسط حصيرة يجلس حولها الآكلون. وكان ذلك يجري على الطريقة العربية في تناول الطعام. وكان يصاحب وليمة عيد الميلاد يوم مفتوح في الإرسالية، حيث تدعى كل العائلات العربية والفارسية، وحيث تقدم المرطبات وتوزع الهدايا الرمزية على الحاضرين.

تقول شريفة: "في أحد أيام الكريسماس، قمنا بزيارة لإحدى العائلات العربية في واحدة من جزر البحرين؛ ذهبت مع السيدة هاريسون والسيدة رانتشل بواسطة مركب إلى تلك الجزيرة، استغرقت الرحلة نصف ساعة، وعند وصولنا كان البحر جزراً (أي أن المياه

كانت متحجرة عن الشاطئ)، وكان علينا أن نركب على ظهور الحمير لنصل إلى اليابسة، وكنت سعيدة بهذه التجربة التي طالما حدثني عنها أصدقائي، كانت الحمير قوية ومدربة، وكان الغرض من ركوب الحمير هو ضمان عدم ابتلال ملابسنا، إلا أن الطريقة التي كان الحمار يسير بها في الماء كانت تبللنا أكثر، وكنت دائماً أفكر في جدوى ركوب الحمير من الأساس. ولو أننا كنا مشينا في الماء لما ابتللنا هكذا. استمتعنا وضحكنا، ولابد أن ضحكاتنا أسعدت الحمير وجعلتها تنطلق بسرعة".

تقول شريفة: إن الدعوة وجهت إليهن من إحدى زوجات أحد الشيوخ، وكانت قد استعدت لاستقبال الضيوف، وأعدت برنامجاً حافلاً، "فقد خرجنا في نزهة بالسيارة إلى مكان في آخر الجزيرة، حيث يمتلك الشيخ بستان نخيل كبير. وكانت أرض البستان مغطاة بالبرسيم الأخضر، الذي أضفى على المكان جمالاً ساحراً، وكان طعاماً جيداً للحيوانات.

كان عدد المدعوات خمسين إمرأة، كلهن مسلمات بالطبع. وكان علينا أن نخلع أحذيتنا قبل الدخول، ثم جلسنا على الحصير المفروش على الأرض. وبدأت النسوة في طرح أسئلتهن المعهودة علينا عند التعارف، مثل: هل نحن أقارب، ولماذا جئنا إلى هنا ؟ وهل نحن متزوجتان؟. وغيرها من الأسئلة التي تركز على الوضع الاجتماعي. ومن الطريف إن إحدى النساء عرضت على شريفة أن تجد لها زوجاً عربياً إن شاءت.

وبعد الطعام دارت الخادمة وهي تحمل في يدها اليسرى دلّة القهوة وثمانية أكواب في اليد اليمنى، ويعاد استخدام هذه الأكواب للجماعة كلها. وبعد تقديم القهوة، عادت الخادمة ومعها دلّة الشاي، الذي كان أكثر حلاوة من القهوة. وبعد ذلك أحضر الطعام، وأعلنت السيدة المضيفة بدء تناول الطعام باسم الله. كانت الصينية كبيرة، والخروف كاملاً برأسه، وبكل شيء فيه، ممداً فوق تلة الأرز.

وبعد العودة إلى الإرسالية، تقول شريفة: إنها شعرت أنه من الصعوبة بمكان التعبير بكامل الصدق وبدقة عن مشاعرها تجاه أصدقائها العرب، وعن أعياد الميلاد في البحرين. ولكنها وضعت كل طاقتها في الكتابة، فكتبت لوالدها كل شيء، ابتداء بالسفينة القادمة من الهند حاملة البريد، وطريقة أكل الأرز بيد واحدة، وركوب الحمار، والنسوة العرب، ومعنى الكريسماس، عندما يحتفل به في العالم الإسلامي.

ظهرت الطواحين الهوائية في البحرين في أواخر العشرينيات، وكانت أول طاحونة قد أحضرها وركبها أحد المبشرين (القس بينـنج). فالماء في البحرين كان سلعة غالية، ويكلف الكثير لاستخدامه من ينابيع في قاع البحر، لأن طريقة استخراجه من قاع البحر كانت عملية شاقة، حيث عيون المياه العذبة، التي كثيراً ما تختلط مياهها الحلوة بمياه البحر المالحة، ويصعب الفصل بينهما. ولذا كانت عملية حفر الآبار على اليابسة أضمن لسلامة المياه من الملوحة، ولكن المشكلة كانت في رفعها من قاع البئر، إلى أن ركبت طواحين الهواء على أيدي المبشرين.

وكانت المياه تجمع وتخزن في براميل كبيرة لري الأرض الزراعية، حيث يزرع البرسيم والخضار، بالقرب من أماكن زراعة النخيل، للاستفادة بالماء مرتين، مرة في ري النباتات السطحية، ومرة أخرى في ري النخيل.

أما عن طريقة استخراج الماء العذب من قاع البحر، فكان يتم عن طريق إنزال أعواد طويلة كالأنابيب إلى قاع البحر، والانتظار إلى أن يتدفق الماء العذب منها، حيث يتم جمع الماء في صفائح وتنقل إلى البر لبيعها. كان الماء البارد في البحرين من الأمور التي يصعب الحصول عليها، مع أنه كان يوجد مصنع للثلج. ولذلك كان يستعاض عن شرب الماء بشرب الشاي، الذي يشرب ساخناً.

كان القس بيننج الذي جاء من أيوا بالولايات المتحدة مهتماً بالماء العذب، الذي يستخرج من آبار على البر، لأنه كان يمارس ذلك في بلاده قبل أن يأتي إلى البحرين، فقد كانت هناك طاحونة هوائية فوق كل مزرعة حيوانات في أيوا. فلابد أن المياه السطحية تتجمع لتكون الآبار العذبة تحت الرمال. وجرت أول محاولة لحفر بئر ماء في الساحة التابعة لمستشفى الإرسالية، وبناء على طلب بيننج وصلت أول طاحونة هوائية أمريكية إلى البحرين، مجزأة إلى أكثر من مائة قطعة، وتم تركيب الطاحونة بجهود أفراد الإرسالية، وحضر المناسبة العديد من أهالي المنطقة المجاورة للمستشفى، ولدى رفعها لتأخذ وضعها الرأسي فوق البئر، حدثت الكارثة حيث سقطت وتحطمت. ولكن الصدفة المحضة أنقذت الموقف حيث أقبلت سفينة، كان عليها مهندس، قدم

خبرته وأعاد البرج إلى وضعه السليم، وتم رفع الطاحونة وتشغيلها. وبدأت المياه العذبة تتدفق، حيث وفرت عناء الذهاب إلى البحر لجلب الماء، ولا يمكن أن يتصور أحد فرحتنا سوى شخص عرف قيمة كوب المياه في أيام الحر البحريني، أو شخص شرب الماء المالح.

أدى نجاح تجربة هذه الطاحونة إلى إقدام العرب على طلب طواحين مماثلة من بيننج، وانتشرت الطواحين في كل مكان في البحرين، حتى أنها أصبحت منظراً مألوفاً. كانت آبار المياه التي تحفر في البحرين والسعودية في العشرينيات هي الآبار الوحيدة من نوعها، مع أن أحد الساسة الإنجليز ويدعى (جازكين) اكتشف الغاز بالقرب من تلال البحرين عام ١٩٠٢، ولكن أحداً لم ينتبه إلى أن هذا الغاز هو مفتاح وجود كميات كبيرة من البترول. ثم ظهر الميجور فرانك هولمز Major Frank Holms البريطاني، الذي خدم في منطقة الشرق الأوسط لمدة طويلة، أثناء الحرب العالمية الأولى، كمنتج للحوم التي تقدم للجيش البريطاني، وكان خفيف الظل قادراً على تكوين علاقات سريعة مع العرب، فعمل في مجال البحث عن المياه والنفط[1].

كانت الوكالة السياسية البريطانية في البحرين ملتقى لكافة الأجانب الموجودين هناك، فكان فيها ملعب للتنس، حيث تمارس

---

[1] خلال فترة وجود كورنيلا في البحرين تعاقد فرانك هولمز مع حاكم البحرين على حفر ١٦ بئراً للمياه، ثم تطور النشاط بعد ذلك إلى التنقيب عن البترول في عام ١٩٢٥. انظر: جمال محمود حجر، دراسات في التاريخ الأمريكي (الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٣) ص ٢٤٧ وما بعدها.

الرياضة التي تعد تغييراً جذرياً للممرضات، بعد أسبوع حافل بالعمليات والولادات والزيارات للمنازل. وكانت ملتقى يتقابل فيه الضيوف الأجانب بالمقيمين.

وكانت شريفة تلعب التنس مع فرانك هولمز، الذي كان يمثل إحدى شركات الحفر البريطانية، وكانت شركته نشطة في حفر الآبار على سطح الجزيرة، وفي الوقت نفسه تقوم بتحليل الرمال لتتأكد من وجود النفط، وكان هولمز يقول: هناك شيء ما في التربة يدلنا على وجود البترول دون أن يفصح لمرافقيه من الأمريكيين عن شيء. كانت هناك شركات نشطة في الحفر في العراق "ولكننا لم نكنَ نتوقع أن يكون هناك بترول في الخليج، وكنا سنستغرب كثيراً لو أننا علمنا بأننا نجلس على وسادة عائمة بالنفط. وبعد هذا اللقاء مع الأمريكيين في الإرسالية التقى بالشيخ سلمان بن حمد آل خليفة، وحصل على إذن بالتنقيب لمدة عامين. لقد كان هولمز هو المبشر بالنفط في البحرين.

أكلت شريفة الجراد، كانت تقطع الرأس والزوائد وتغمس الجراد في الصلصة ليصبح طعمه شبيهاً بطعم الفستق المملح، وهي لم تمل من أكل السمك؛ لأن العرب الذين يعيشون في الخليج كانوا يصطادون أنواعا كثيرة من السمك، بحيث يمكنك أن تأكل نوعاً جديداً كل يوم ولمدة أسبوع.

رصدت شريفة التغيرات التي جرت في مجتمع البحرين، نتيجة لاكتشاف النفط، فقد بدأت حياة الناس تتغير من حيث طريقة المعيشة، وأسلوب العمل، فمع حفر الآبار الارتوازية في كل مكان، انتهى عهد

تجميع ماء الشرب، ووضعه على الأسطح ليبرد، وانتهى عهد الماء المالح، الذي كان يختلط بمياه العيون العذبة المتدفقة من قاع البحر، وكان العرب مسرورين لهذه المعجزة، والنعمة التي كانت تنتظرهم تحت رمالهم الحارة الجافة.

وعلى المستوى الاجتماعي، أحدث الأمريكيون الشبان، الذي جاءوا مع آلات الحفر، واقعاً اجتماعياً جديداً، فقد كانوا يتوقون للخروج مع الفتيات الأمريكيات العاملات في الإرسالية، وخاصة أنهن كن فتيات بغير أصدقاء. وكثيراً ما أقبل هؤلاء الشباب على الكنيسة، ليس للتدين بقدر ما كان لأسباب اجتماعية. وكانوا يسارعون إلى تلبية دعوة كبار المبشرين لتناول المشروبات الباردة بعد القداس طمعاً في مجالسة الفتيات. ولكن خروجهم مع إحدى الممرضات لم يكن أمراً سهلاً، لأنهن كن مطلوبات في أي وقت خلال ٢٤ ساعة في اليوم، ولذلك كان أي لقاء أو موعد قابل للإلغاء عند أية حالة طارئة.

وكان أفضل مكان للقاء هو مقر شركة النفط في ليالي الجمعة، حيث كانت تعرض الأفلام الأمريكية، وتتوافر المثلجات التي كانت ضرباً من السخاء والندرة في تلك الأيام. وأدت هذه اللقاءات إلى خروج تسع ممرضات من مهمتهم التبشيرية، والتحقن بأصدقائهن من عمال النفط الأمريكيين خلال السنة الأولى من العمل في البحرين. ولكن شريفة لم تكن جادة أبداً في ترك عملها وواجبها كمبشرة، وإن كانت قد استمتعت بصحبة هؤلاء الشباب الأمريكيين. وقد أثرت عملية خروج بعض الشابات من الممرضات والطبيبات على أداء البعثة التبشيرية في

البحرين، وخاصة أنهن تلقين الكثير من التدريب على الحديث باللغة العربية، وأساليب العلاج، بما يتناسب وهذه البلاد.

وبالإضافة إلى التغيرات التي طرأت على مجتمع الإرسالية، والمجتمع البحريني بعامة، من جراء قدوم الأمريكيين الشبان، إلا أن إدخال الكهرباء إلى جميع المنازل تقريباً كان هو التغيير الأكبر، حيث جلبت مولدات الكهرباء من الخارج، ولأول مرة تم استخدام المراوح والبرادات، ومع استخدام الكهرباء تغيرت أنواع الطعام، فقد أصبح بالإمكان حفظ اللحوم والحليب. كما ظهرت الطائرات تحلق فوق مطار المنامة، جالبة معها الفاكهة الطازجة ومختلف البضائع. وتم إدخال المياه العذبة إلى المنازل، وذهبت أيام تأجير الرجال لحمل الماء. وظهرت أجهزة الراديو بالتدريج في المنازل، وأصبح في الإمكان التقاط إذاعة لندن ال BBC وكان ذلك أمراً مهماً؛ بسبب الأوضاع العالمية غير المستقرة في أواخر الثلاثينيات (من القرن العشرين). وقد أسهمت هذه الراديوهات في تيسير "عمليات التبشير التي كنا نقوم بها". وكان أكثر البرامج نجاحاً البرنامج المسيحي (ساعة الإصلاح) الذي يُبث من قبرص.

وقد طال التغيير المرأة البحرينية، إذ خف عنها عبء العمل المنزلي، وأصبحت تجد لنفسها طريقة أخرى في الحياة، نتيجة لنمو مدينة المنامة العاصمة، وخف تأثير التقاليد الإسلامية التي تقضي ببقاء المرأة في البيت. "وكثيراً ما كنت أستدعي إلى الحريم في بيت كبار القوم، وكنت أعرف ظروف الزوجات والجواري الموجودات هناك".

فحياة المرأة في الحريم تبدأ بدفع مهر لها. وكانت الإماء تباع مثـل أي رأس من الماشية، وكانت النسوة يفضلن تحويل النقود إلى مـصوغات ذهبية، تحسباً لليوم الذي تطرد فيه المرأة من منزلها، وكان الطلاق هو أكثر الظواهر إخجالاً. ولربما كانت الزوجة الأولى هي أكثر الزوجـات أماناً من الطلاق، بسبب قوانين الإرث والعلاقات الأسرية. وكان التجار في البحرين يتزوجون زوجتين أو ثلاثة حسب مقدار غناهم.

كانت النسوة معزولات عن العالم، كن يلعبن الورق ويثرثـرن عن غيرهن من النسوة (يغتبنهن). وكن يلبسن أحدث صيحات الموضة وهن في الحريم، أما إذا وجدن بين الناس فكـان علـيهن أن يتغطـين بالعباءة، وعند خروجهن إلى الحوانيت كن يلبسن الثوب، ثـم يـضعن العباءة، ومن فوق رؤوسهن القناع السميك الذي يغطي وجوههن. ومـع النفط طال التغيير المرأة، وبدأت النسوة يلاحظن بأن هناك فتيات يعشن غير معزولات، ففي مدارس الإرسالية كانت الفتيات يحضرن للمدرسـة المختلطة، وكن يجئن من الطبقات الدنيا من المجتمع، ثم بعد ذلك مـن الطبقات الغنية، أما الطبقة الوسطى فكانت أقل استجابة، "فالمرأة كانت لا تساوي أكثر من لعبة يمتلكها الرجل".

"كان للنفط أثره في تغيير خدماتنا الطبية للناس، فقد كنا نقـدمها بدون مقابل عندما حضرنا لأول مرة للبلاد العربيـة، فأصـبحت هـذه الخدمات الآن تشتري من قبل العرب، عند توظيف الأطباء الـسوريين واللبنانيين وغيرهم، وأصبحت خدماتنا تقتصر علـى حـب الفقـراء،

والعطف عليهم، والخوض في الصعاب لمساعدتهم، كان هـذا التحـول حاداً، إلا أنه مهم في التركيبة النهائية لإرساليتنا".

كورنيلا في القطيف

كانت أولى جولات شريفة خارج البحرين، في الجزيرة العربية عام ١٩٢٣، حيث ذهبت بصحبة الدكتور هاريسون إلى القطيف، وكان الدكتور هاريسون قد زار السعودية من قبل. والقطيـف تبعـد حـوالي خمسين ميلاً شمال البحرين، على ساحل الأرض الأم. وكان أميرها قـد طلب حضور بعض أفراد البعثة الطبية في البحـرين لعـلاج بعـض مرضاه. كان الدكتور هاريسون قد امتلك أول سيارة تدخل الإرسالية في البحرين وكانت من نوع فورد صالون. وكان حاكم القطيـف حريـصاً على تيسير مهمة البعثة في القطيف، فوسع الطريق ومهـده للـسيارة. وكانت شريفة هي رفيقة هاريسون في هذه الرحلة. ولذا أخذا يعدا العدة للسفر على الجمال إلى الساحل البحريني، ومن هناك ركبا سفينة شراعية حملت كل شيء معهم حتى السيارة الفورد إلى الساحل السعودي، تقول شريفة "لم يكن هناك أي شيء مستحيل، هكذا تصورنا على الأقل، حتى عملية تنصير المسلمين في الجزيرة العربية كان أمراً متوقعاً، ولكنه كان يستلزم بعض الوقت".

وحين وصلت السفينة الشراعية إلى ساحل القطيف كان البحـر جزراً (كان الماء منحسرا)، مما اضطرها إلـى الوقـوف بعيـداً عـن الساحل. وعلى الشاطئ كان الأمير في انتظار البعثة، التي أعد لها كـل شيء، ومنها قطيعاً من الحمير للركوب ونقـل الأمتعـة، وكـان فـي

الاستقبال أيضاً جماعات من الناس رجالاً وأطفالاً واقفين على الشاطئ. "وتوجهنا إلى منزل الحاكم، حيث تم الترحيب بنا، وأبلغنا بأن الأمير مستعد لمساعدتنا بكل ما يملك لنكون مرتاحين، طلب الأمير القهوة، وأرسلنا لنقيم مع الحريم". وجئ بطعام الإفطار، الذي يتكون من الشاي والخبز والدبس (عسل البلح) والبيض المقلي والفاكهة المعلبة.

وعلى الفور أعدت ثلاث غرف، إحداها مستشفى للرجال، وأخرى للنساء، وثالثة لصرف الأدوية. كانت المنطقة مليئة بالمستنقعات التي ينتشر فيها البعوض، فأصيب أفراد البعثة بالملاريا. وبعد أن شفوا جميعاً، بدأوا العمل في المدينة لبضعة أيام، ثم طلب الحاكم من البعثة زيارة القرى المجاورة التي كانت مبنية من سعف النخيل على عكس المدينة التي كانت بيوتها مبنية من الطين. ولم تكن الشوارع أكثر من ممرات ضيقة لعبور الحمير، ولهذا كانت الرحلة شاقة، ولكنها كانت مسلية "فالأطفال كانوا يتفرجون علينا طوال الطريق".

وتوغلت البعثة داخل الصحراء، بناء على طلب أحد الشيوخ، الذي طلب زيارة مرضاه، وركبنا الجمال حتى وصلنا إلى مخيم هذا الشيخ، حيث كانت الأغنام والحيوانات تحيط بالمخيم، وكان النسوة يلبسن الثياب الطويلة والبراقع تغطي وجوههن، وعلى العمود الرئيسي للخيمة كان يعلق سيف وخنجر وبندقية ومسدس وأحزمة الذخيرة. كانت الوجبة التي قدمت للبعثة مكونة من الدجاج والجراد، "بقينا إلى أن نفدت أدويتنا ثم عدنا إلى البحرين".

كانت شريفة، وهي في الهفوف، تكتب رسائل لأصـــدقائها فـــي أمريكا، سجلت في إحداها معلومات جيدة عن زي المرأة هناك قالت:

كان الدكتور شتورم يطلق على النسوة الشرقيات لقب "كانــسات الشوارع" لأن عباءاتهن السوداء الطويلة كانت تزحــف خلفهــن علـــى الأرض، وكن إذا قدمن للعيادة يجرون وراءهن الأتربة والقش، وينشــرن الغبار في العيادة، ابتداء من منضدة الاستقبال وحتى غرفة إعطاء الحقن وغرفة العلاج. وذات مرة سألت شريفة إحدى السيدات عن السبب الذي يدعوهن لإطالة عباءاتهن، فقالت بأن الرجال فـــي الهفــوف يعتبــرون قصاصي أثر ممتازين، ويستطيعون قراءة العلامات المتروكـــة علـــى الرمال في الصحراء أو في الصخور، فكما يمكنهم تقصي أثــر جمــل هارب مثلاً، فإن هؤلاء الرجال يمكنهم أن يقرأوا علامات أرجل النساء وأن ويتعقبوهن في المدينة، كما أن هناك بعض المخاطر، إذا ما كـــان ذلك القصاص لصاً أو مجرماً، فإنه قد يتتبع المرأة مـــن الـــسوق إلـــى منزلها، وهنا تأتي أهمية العباءة الطويلة في مسح تلك الآثار.

X

جيرالدين رندل

GERALDINE RENDEL

في رحلة عبر المملكة العربية السعودية

عام ١٩٣٦

X

جيرالدين رندل

GERALDINE RENDEL

في رحلة عبر المملكة العربية السعودية[1]

عام ١٩٣٦[2]

وسط وشرقي الجزيرة العربية منطقتان نادرا ما زارهما رحالة أوربيون. من بين النساء هناك امرأتان أوربيتان فقط، السيدة رندل هي المرأة الثانية، تمكنتا من عبور الجزيرة العربية من البحر إلى البحر، وأقامتا في الأحساء والرياض، وبدعوة من الملك عبد العزيز، تمكنت السيدة رندل من أن تصطحب زوجها في ربيع عام ١٩٣٦ في هذه الرحلة المثيرة.

***

---

[1] . ترجم هذا المقال من الإنجليزية الدكتور جمال محمود حجر عن النص المنشور في المجلة الجغرافية، المجلد ٦ ، العدد ٣ (١٩٣٧- ١٩٣٨) ونشرت الترجمة والتعليق في: مجلة الدارة، العدد ١ السنة ٢٩ (٢٠٠٣).

2. GERALDINE RENDEL, "ACROSS SAUDI ARABIA", **Geographical Magazine**, vol. 6, no. 3, 1937-1938.

حين تحط على أرض المملكة العربية السعودية، فإنـك سـوف تدخل عالمين، عالم قديم وآخر جديد. فعالمها القديم يتمثل في فلـسفتها الاجتماعية التي لا تزال تنتمي إلى العصور الوسـطى [عهـد الـسلف الصالح]. وعالمها الجديد ناتج من أنها دولة كبيرة الحجم من إفـرازات مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى. ففي شهر المحرم ١٣٥٦ الموافق مارس ١٩٣٦، نزلنا في العقير حيث كانت السيارات تنتظرنا.

لقد اكتسبت المملكة العربية السعودية وحدتها وأهميتها السياسية من رجل واحد عبقري هو الملك عبد العزيز آل سـعود، الـذي كتـب تاريخه أناس أكفاء غيري. فمنذ أن كان لا حول له ولا قوة في منفاه في الكويت منذ ١٨٩١، نجح بالتدريج في أن يفرض سيادته علـى معظـم أرجاء الجزيرة العربية، التي تشح فيها الأمطار ولا توجد بهـا أنهـار، والتي يبلغ عدد سكانها نحو ثلاثة ملايين نسمة. وتوجد بهـا الأمـاكن المقدسة، التي يتوجه إليها المسلمون كل عام [في موسم الحـج]. هـذا فضلا عن موقعها على الطريق إلى الشرق.

تبدو العقير[1] من خليج البحرين كبقعة حضرية تقع بين البحـر ورمال الصحراء من الداخل. وتتكون من قلعة، وبيت للجمارك، وبعض المنازل، ومرسى للسفن. وبالرغم مما يبدو من انفتاح الجزيرة العربية، إلا أنه لا بد أن يرتدي الأوربيون الزي العربي [عند وجـودهم علـى أرضها]. وفي إحدى الغرف بالطابق العلوي من مبنى الجمارك ارتـدينا

---

[1] العقير: من قرى الأحساء بالمنطقة الشرقية ذات إمارة (وهي غير العقير من هجر العجمان بمنطقة نطاع في المنطقة الشرقية) .

الزي العربي. فقد ارتديت عباءة مصنوعة من وبر الجمل الأسود مزينة بخيوط ذهبية. ثم وضعت النقاب الأسود الثقيل الذي يميز الزي الخارجي للمرأة العربية. ورفعت العباءة على رأسي لتغطية شعري بحيث تتسدل في اتجاه الأسفل نحو الأرض. ولما كنت فارعة الطول فلم تغط العباءة قدمي، وكشف ذلك عن كوني أجنبية في أكثر من مناسبة. لقد كانت [العباءة] لباسا غير مريح بالنسبة لشخص لم يتعود عليها. ولكن ميزتها الوحيدة أنها حجبت العيون الفضولية عني. ونظرا لأن قليلا من النساء الأوربيات دخلن نجد فقد أثار وجودي كثيرا من الفضول لدى البعض.

غادرنا العقير في سيارات (فورد) متجهين غربا عبر الكثبان الرملية. هذا السباق فوق رمال الصحراء في اتجاه غروب الشمس كان تجربة مثيرة. كنا نصعد كثبانا وننزل أخرى، وقد خفضنا ضغط الهواء في الإطارات كي لا تغوص في الرمال. ومن حين لآخر كنا نجد أرضا صلبة حيث كنا نتوقف لبعض الوقت لتبريد محرك السيارة. وكانت ألوان الرمال متعددة ما بين اللون العسلي إلى اللون الفضي المموج.

وبعد خمسين ميلا من السفر عبر الرمال، وصلنا إلى واحات الأحساء[1]. هذه الواحات الغنية تزود نحو سبعين أو ثمانين قرية باحتياجاتها [الغذائية] فضلا عن مدينة الأحساء نفسها، التي هي عاصمة الإقليم الذي يحمل ذات الاسم. والأحساء معروفة بحدائقها وعيونها الكبريتية الدافئة، التي تروي كل الواحة. وهي محاطة بأسوار مبنية من

[1] الأحساء: أشهر مدينة في شرقي الجزيرة العربية قبل عهد النفط ، ونقلت القاعدة منها إلى الدمام ، وهي غير الأحساء من مياه قبيلة شهران بمنطقة بيشة في إمارة بلاد عسير

الطوب اللبن، وبداخلها قلعة الكوت، وهي محصنة ببوابات قوية وعديد من الأبراج المستديرة، وبداخل الكوت يوجد قصر أمير الأحساء، وفي غرف الضيافة تم استضافتنا. كانت غرفنا في الطابق الأول، تفتح على رواق يحيط بفضاء، به أعمدة، بينها درابزين منقب (أرابسك). والغرف لها شبابيك عديدة بغير زجاج، ولها مغالق من الخشب، ويمكن إغلاقها إذا رغب الإنسان في ألا يراه أحد من البيوت المجاورة، وغرفة استقبالنا مزودة بمقاعد مرصوصة بجوار الجدران الأربعة. ومع أنها مرتفعة عن الأرض نسبيا، إلا أنها مريحة عند جلوس القرفصاء عليها. وبالقرب من السقف توجد فتحات مزينة بأعمال الملاط، التي تضفي "ديكورا" جميلا. والأحساء مشهورة بهذا الملاط المتميز، وكذلك الملاط المحفور المزين على الحوائط. ولقد رأينا كثيرا منه، والتقطنا صورة لإحدى الحوائط.

وخارج قلعة الكوت، يوجد السوق في الشارع الكبير الواسع. وهو عبارة عن رواق به بواكي (جمع باكية) مستديرة، ومن فوقها حليات مستديرة تفتح إلى داخل البازار (السوق)، وهي (أي البواكي) موجودة في جانب واحد من السوق، وعلى الجانب الآخر يوجد سور القلعة والأبراج. والغربيون يقللون من أهمية معظم الأسواق الشرقية. وكثير مما يراه الإنسان فيها بقي هناك، لأن الغربيين جاءوا ليجدوها هكذا. وأهل الحسا يبيعون ويشترون بشكل طبيعي، كجزء من حركة حياتهم اليومية الروتينية، دون اعتبار لأي ملاحظات قد تثير اهتمام الأجانب عن عاداتهم وتقاليدهم. فلا يوجد شيء للبيع إلا ما يحتاجونه لأنفسهم، مثل: التمر والأرز والبهارات والفاكهة واللحم والخضار وبعض احتياجات المنزل البسيطة ....

كانت النساء المتسوقات في السوق مهتمة جدا بي شخصيا. فقد اكتشفن بسرعة أنني لست منهن، وأنني أجنبية، وأحاطو بي من كل جانب، مبحلقات في وجهي المغطى بالنقاب (البرقع) ومعظمهن يرتدين عباءة سوداء شفافة خفيفة، وباردة أكثر من تلك التي كنت أرتدي. وقد طلبت أن أرتدي واحدة مثلهن، ولكنهن أفهموني أن السيدات ذوات المكانة المتميزة لا يجب أن يرتدين شيئا خفيفا كهذا. وكثير من الرجال كانوا يرتدون عباءات خفيفة بنية اللون، أو ذات اللون السكري ولها حواف مزينة باللون الذهبي.

والأحساء مشهورة بخيوطها المذهبة، وكل العباءات الجميلة مصنوعة هناك. والجمال تتجول في السوق على طول الطريق بما تحمل من أمتعة. أما الحمير البيضاء الكبيرة في الحسا (حمار حساوي) المشهورة في الشرق كله، فأرجلها وبطونها مزينة بالحناء، تنطلق هنا وهناك جيئة وذهابا عبر السوق، يسوقها أطفال صغار، يصيحون دائما بكلمة "بالك" يعني "خلي بالك"، وهم يندفعون وراءها.

وبعد ذلك زرنا البساتين وعيون الماء. وإحدى هذه العيون تدعى "خدود" وتقع على بعد ثلاثة أميال خارج الواحات. ترتفع مياهها من وسط بركة، عميقة مياهها تجمع بين اللونين الأزرق والأخضر، وتتوزع المياه المتدفقة نحو بساتين النخيل وحقول الأرز بقوة الدفع الذاتي. وجمال هذه البركة يأتي من أنها تشبه الجوهرة وسط أشجار النخيل، وهي تعكس صور هذه الأشجار على صفحة المياه فتشكل منظرا لا يمكن نسيانه.

و"أم السبعة" منطقة أخرى جميلة أكثر اتساعا وتتخللها الشمس أكثر من منطقة "خدود". فالمياه تتدفق على شكل فقاعات من وسط الصخور في وسط بحيرة عميقة، والمياه صافية لدرجة أن الإنسان يستطيع أن يعد حبات الرمل في قاع البحيرة بسهولة، وهذه البحيرة تغذي سبعة مجاري مائية مختلفة المستوى، تتدفق فيها المياه لري الحدائق.

وقد شاهدنا عينين كبريتيتين تستخدمان للاستحمام: إحداهما "عين نجم" والأخرى "عين الحرا"، وعين نجم مغطاة تماما، فقد بني فوقها بناء يستخدم في الاستحمام المغطى (الداخلي). وعين الحرا دافئة، وتستخدم للاستحمام المكشوف (الخارجي) ويوجد فاصل يحجز جزءا منها لاستخدام النساء.

وتحت أشجار النخيل تنمو أشجار الفاكهة، كالخوخ، والرمان، والموالح، والليمون، وجميعها كانت مزهرة. وبعض البساتين بها استراحات صيفية، والاستراحة التي زرناها بها حمام سباحة. وفي إحدى هذه الاستراحات تمت استضافتنا بكرم، فقد كانت هناك طاولة ملأى بالفواكه والحلوى واللقم، والبسكويت الرائع بأنواع مختلفة. فضلا عن أنواع من الفاكهة والياميش، وقد قدم لنا الشاي في أكواب صغيرة، وأكلنا وتكلمنا وبقينا حتى غروب الشمس.

ومع غروب الشمس جاء أخو مضيفنا إلى خارج البيت، وأذن للصلاة، ونهض مضيفنا من مكانه على الطاولة، ونهض الجميع، ووقفوا

في صفين للواحد خلف الآخر، حيث فرشت سجادة لأحدهم ليؤم المصلين.

وكان رحيلنا من الحسا أشبه ما يكون بالزفة. فقد تجمع عدد كبير من الناس خارج قصر الأمير ليروا أمتعتنا وقد وضعت على الشاحنات، والسيارات الفورد الأربعة. وقد زودنا مضيفنا ببعض الأثاث لتحقيق قدر أكبر من الراحة، مثل طاولة كبيرة للطعام و ستة كراسي، وكانت [أرجلها] بارزة من الشاحنة مثل أشواك القنفذ.

طريق القوافل من الحسا إلى الرياض كان يتجه غربا، ولكن السيارات كانت تأخذ اتجاه الشمال الغربي لتتفادى مناطق صعبة، ومع ذلك فقد كان السير على غير ما يرام في بعض الأوقات، وخاصة في المناطق الرملية، التي كنا نفقد فيها القدرة على الحركة تماما.

وبعد حوالي خمسين ميلا من الأحساء، واجهتنا أولى المشاكل مع الرمال. ولكننا نجونا بالسلامة في النهاية، ووصلنا إلى العريرة متأخرا بعد الظهر. والعريرة[1] هي إحدى هجر الإخوان (النجديين) المهجورة من قبيلة العجمان، وهي تتكون من سبعة بيوت مبنية بطريقة جيدة، وسبعة أشجار من نبات الطرفاء، وثلاثة آبار مياهها عذبة، وقد ملأنا منها القرب الجلدية. والإخوان هم القوة القتالية الوهابية، مثلها مثل قوات كرومويل في إنجلترا، كونها ابن سعود في عام ١٩١٠. والوهابيون مسلمون (متطهرون) محافظون، وينتمي إليهم معظم السكان

---

[1] العريرة؛ من قرى الأحساء في المنطقة الشرقية ، وهي غير العريرة هجرة بمنطقة الزلفى في إمارة الرياض .

في المملكة العربية السعودية، وعقيدتهم تمنعهم من تعاطي الكحول والدخان، كما تمنعهم من الاستماع إلى الموسيقى أو الرقص، كما تمنعهم من التصوير أو نحت التماثيل. فلم نجد صورة أو تمثالا في نجد، ولا أذكر أنني لاحظت من بين السجاد الجميل الذي شاهدته على طول الرحلة أي صورة لحيوان أو طائر.

وفي تلك الليلة آوينا أسفل حافة إلى الجنوب من الطريق، على بعد ثلاثين ميلا من العريرة، فقد هبت رياح شمالية شرقية عند غروب الشمس، وكانت تلقي بالرمال علينا، ولم يكن ذلك أمرا مريحا أبدا. وكانت الشاحنة التي تحمل أمتعتنا لا تزال خلفنا، ولا نعرف بالتحديد على أي بعد منا، وكان معنا سيارة واحدة مكشوفة، كنا نتوارى خلفها من الرمال. جمعنا الحطب وأشعلنا النيران التي أضاءت المكان من حولنا وتجمعنا حولها، وأعددنا الشاي مستخدمين علبة بترول فارغة. وبمرور الوقت، وصلت الشاحنة التي كانت خلفنا، ونصبنا خيامنا، ورحت في نوم عميق بالرغم من صوت الرياح واهتزاز الخيمة.

أما المنطقة التي عبرناها في اليوم التالي، فقد كان بها خيام كثيرة منصوبة للبدو، وقطعان من الجمال ترعى. وذهبنا إلى إحدى هذه الخيام القريبة من الطريق، وسألناهم بعض الحليب، فرحبوا بنا، وأحضروا لنا سطلين (جردلين) كبيرين مملوءين بحليب الجمال. وغرفنا أوعيتنا فيها، وجعلنا نشرب حتى امتلأنا. كان للحليب رغوة عالية مثل رغوة البحر، ووجدت أنه لذيذ جدا. وكذلك أحضروا لنا بعض اللبن (الرايب) الذي كان به طعم الجبن القوي، وكان ملمسه متماسكا.

وزرت النساء في خيمتهن، فوجدتهن يقلبن إناءا على النار بـه مرق أبيض، بحزمة من عظم الجمال الرقيق الجاف. وقلن لي إنه نبات الرعد (الكمأة) يطبخ بالحليب. وهذا النبات ينمو بشكل جيد في شـرقي الجزيرة العربية، والطبق منه محبب في الصحراء. ولقد سـبق لـي أن تناولته في البحرين، وكان طعمه لذيذا. المرأة البدويـة ليـست مغطـاة الوجه تماما كما هو شأن المرأة في المدينة، فهي تضع قناعا بدلا مـن الغطاء (البرقع) تاركة عيناها حرة، وهو عملي أكثر حين تساعد زوجها في العمل، وحين تتعامل مع الحياة الصعبة في الصحراء.

وجاء ثلاثة من الرعاة أعمارهم عشر وثماني وسـت سـنوات ليتعرفوا علينا. وهم يشبهون "آلهة الرعـي" عنـد الرومـان (fauns) بأجسامهم النحيلة الطرية وثيابهم الرثة المهلهلة، ووجوههم الجادة الذكية. قدمت لهم شيكولاتة، فنظروا إليها بشيء من عدم الثقة. وحينما أغريتهم بتذوقها في النهاية بصقوها بقرف واضح.

ومع منتصف النهار هبطنا من منطقة مرتفعة إلى رمال الدهناء. ومع أنها تبدو على الخريطة كمنطقة رملية، إلا أن هذه الرمال خصبة، وتعد واحدة من أراضي المراعي الكبيرة في الصحراء الشرقية. ولا بد أننا عبرنا حوالي ألف ميل من الأرض المـسطحة المغطـاة بالنباتـات الشوكية ذات الزهـرة camel-thorn in flowers ونبـات الـشعير، وخضراوات أخرى، وجمال كثيرة ترعى، وبعض خيام البدو المتنـاثرة هنا وهناك. وتركنا هذه المنطقة على طولها إلى بلد له طبيعـة مختلفـة

فوصلنا إلى آبار رامه Ramah Wells. وهنا توجد ست آبار مهمة، وعليها جمال تسحب الماء من أكبرها.

وصلتنا رسالة من الأمير سعود ولي العهد، تقترح أن نقضي الليلة في معسكر صيده في الرمحية[1] Rumheya على بعد خمسة عشر ميلا من موقعنا، قبل أن نواصل الرحلة إلى الرياض. كانت زيارتنا لهذا المخيم ممتعة للغاية، فقد أقمنا في مكان فخم، عبارة عن صيوانين كبيرين، يتبعان الأمير سعود، تأخذ بخيال الواحد منا إلى تلك الصور الخيالية أيام هارون الرشيد، مبطنة بقماش أحمر وذهبي، ومغطاة بالسجاد العجمي الفاخر، وعلى أرضية خيمة النوم يوجد مخدع couch أو سرير عليه وسائد حريرية.

فزعت حين رأيت صقور الأمير، ذات العيون الحادة الجميلة، وهي واقفة على معصم رعاتها، وكل واحد منها يستجيب لندائه باسمه. وقد رفع غطاء الرأس عنها لعلي أمسح بيدي على رأسها، فالصقور تحب ذلك.

وقبل أن نغادر في الصباح، جمعت الجمال والقطعان للمعاينة. فقد كان هناك قطيع كبير من الأغنام ذات الوبر البني وذات الوبر الأبيض، والماعز، وكذلك ثلاثة أسراب من الجمال ومعها نحو سبعين أو ثمانين من الصغار (calves)، والجمل الصغير مخلوق مدهش، له وبر صوفي بألوان مختلفة من الكريم والبيج والبني، وله أرجل جميلة

---

[1] الرمحية : من قرى سبيع بمنطقة رماح في إمارة منطقة الرياض ، وهي غير الرمحية من قرى شقراء في إمارة الرياض .

متخبطة (غير منتظمة السير) تسير في كل اتجاه. وبعض صغار الجمال المولودة حديثا تكاد تسير بصعوبة. كانت هناك لحظات مثيرة حينما كانت هذه الصغار تعزل عن أمهاتها، لكي تتهيأ لنا الفرصة لالتقاط بعض الصور لها.

الطريق إلى الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية يأتي ميلا بعد ميل، على هضبة بلون التراب الحديدي، يقطعها حواف من التلال بدون أية علامة للخضرة. وأخيرا بدا خط باهت من الحوائط (الأسوار) والأبراج في الصحراء، وحزام أخضر وسط الصحراء كما لو كان قد رسمه فنان بالقرب من العاصمة (المدينة)، إنها بساتين النخيل في واحة الرياض.

الرياض محاطة بسور مبني من الطوب اللبن، وعليه أبراج على مسافات متباعدة. ودخلنا المدينة من بوابة الثميري Thumairi التي تقود إلى شارع واسع، به بيوت عالية من الطين والحجر الجيري، بنيت على طول الطريق إلى ميدان القصر، وهو ميدان جميل جدا، يطل قصر الملك عبد العزيز على الجانب الغربي منه، بينما يطل على الجانب الشرقي بيت ضيافة لشيوخ القبائل، وهناك صفان من الأعمدة تصلان ما بين الجانب الشرقي والجانب الغربي، وتغلقان الجهة الشمالية. وحينما يكون الملك مقيما، لفترة تبلغ ستة أو سبعة شهور في السنة، يكون الميدان مزدحما بالبدو، الذين جاءوا لمناقشة شئونهم معه. ويسمح لهم بأن ينصبوا خيامهم في الميدان لمدة ثلاثة أيام، وهي المدة التقليدية للضيافة في الصحراء دون مقابل.

وقصر الملك عبد العزيز عبارة عن مبنى عال محصن ببرجين قويين، ومزين بخطوط بسيطة على جدرانه. فهو بلا شك جميـل فـي نموذجه، وهو يبين لي كيفَ سيكون مستقبل العمارة في المملكة العربية السعودية. وهو محاط بمجموعة من القصور الصغيرة لأبنـاء الملـك. وهذه القصور متصلة بالقصر الملكي بأقواس وممرات، وكامل المنطقة ذات الطابع الملكي لا بد أن تكون أهم جزء في المدينة.

وخلف ميدان القصر يقع السوق والجامع الكبير. والجـامع شأنه شأن المساجد في نجد بسيط للغاية، له مئذنة قصيرة ومتواضعة، وبدون أي ديكور خارجي من أي نوع. ويسمح للمسلمين فقط بدخول الجامع في المملكة العربية السعودية، ولذلك فإنني لم أر قط ما بداخله. أما الـسوق فأقل في مستواه من سوق الأحساء.

وأثناء زيارتنا للرياض أقمنا في قصر البادية الجديد، وهو أحد قصرين بناهما الملك عبد العزيز في ظروف مختلفـة، واحـد لنفسه والآخر لولي العهد. وهما قائمين على الحافة الغربية لوادي حنيفة، على بعد خمسة أميال تجاه الشمال الغربي من الرياض، وهما يطـلان عبـر الوادي على مسجد صغير في الاتجاه المقابل. والقصر الجديد مبني من الطين والحجر الجيري حول حوشين (courts) مفتوحين (صحنين) على الطريقة الإسلامية التقليدية. والأبواب والسقوف مصنوعة مـن خـشب جذوع النخل وأشجار الطرفاء. وقد وجدنا هنا كـذلك ديكـورات مـن الجبس شبيهة بما أعجبنا به من قبل في الأحساء. وهـذا النـوع مـن الديكور يظهر لي بوضوح، فهو يكسر حدة لون الحوائط الأبيض السادة،

دون أن تفقد الحوائط رونقها وبساطتها. والأبواب جميعها مدهونة بألوان مبهجة، وكأنها تعطي انطباعا بالترحيب الدافئ، وسط اللـون الأبـيض الشامل.

وخلف القصر توجد حديقة نخيل كبيرة تروى عن طريق آبـار عميقة. وهذا النوع من الآبار يعرف بـ"السانيا"، وتستخرج منه الميـاه إلى أعلى، إذ يسحبها ستة حمير حساوية. فكل حمار يسحب إلى أعلـى قربة من الجلد، تفرغ تلقائيا في قناة مائية حالما يصل الحمار إلى نهاية مرحلة السحب. والأصوات الناجمة عن عملية السحب هـذه مـستمرة ومتواصلة، وتعرف بأنها "أوركسترا الحمار".

وإلى أعلى من وادي حنيفة وعلى بعـد عـشرة أميـال مـن الرياض، تقف خرائب الدرعية، العاصمة الوهابية لنجد، تحـت حكـم تركي بن عبد الله. وقد دمرت المدينة تماما بقوة النار والسلاح في عـام ١٨١٨ حين هاجمتها قوات محمد علي. وقد بنيت الرياض لتحل محلها كعاصمة. إن بقاء الأسوار العالية حتـى الآن وبـساتين النخيـل فيهـا وأشجار الفاكهة لدليل واضح على الأيام العظيمة أيام الوهابيين.

غادرنا الرياض في ١٢ مارس عبر وادي حنيفة عند جبيلـة[١]، حوالي ثمانية عشر ميلا في اتجاه الشمال الغربي. ومـن هنـاك عبـر عوينة[٢] وفوق جبل طويق إلى بلاد ذات طبيعة مختلفة بها قرى محصنة

---

[١] جبيلة من قرى العيينة بمنطقة إمارة الرياض ، فيها إمارة من إماراتها .

[٢] عوينة من قرى العجمان ، من أعمال نطاع في المنطقة الشرقية .

في بره[1] Barra وعويند[2]، وبعد المرور في أرض فاصلة توجد قرية مراة[3] Marat ويقال إن قرية مراة يوجد بها ثلاثة آلاف نسمة، وأسوارها الطينية ذات لون أحمر غامق، مثلها مثل لون تربة مقاطعة ديفون Devonshire [بإنجلترا]. فيها حدائق كبيرة للنخيل تمتد إلى ما وراء أسوارها. وقبل قرية مراة مباشرة ترى نفود طريف الحبل Nafud Turaif Al Habl وهي عبارة عن حافة طويلة لون رمالها برتقالي- بنفسجي orange-pink تقع إلى الشمال من طريقنا. وقد رأيناها في أول الأمر كما لو كانت سرابا، وكلما آقتربنا منها تجد أن السراب يختفي، وأن لون الرمال يتجه للون اللهب مع وجود نباتات شوكية، ونباتات عشبية في الأرض المجاورة، وهي تشكل صورة مركبة متكاملة الألوان لا أستطيع نسيانها بسهولة. وبعد ذلك عبرنا رمال القنفدة Qunafidha Sands.

وعندما كانت الشمس تغرب وصلنا حافة "نفود السر" Nafud al Sirr هذه الرمال الناعمة المتحركة كانت أكثر المناطق التي عبرناها صعوبة، ولم يجعل عبورها سهلاً مرور نحو ثلاثمائة سيارة، كانت تشكل موكب الملك عبد العزيز وأسرته ومرافقيه في رحلة الحج إلى مكة. فالطريق سيء في كل الأحوال، ومع ذلك فقد أصبح أكثر سوءا مما اضطرنا إلى تركه في بعض المناطق، وسلوك طريق خاص بنا لكي نعبر الرمال الناعمة بأمان. وكان من الضروري أن نسير بأقصى

[1] البرة من قرى الخرج ، وهي غير البرة من قرى المحمل في منطقة إمارة الرياض .
[2] عويند من قرى منطقة البرة في إمارة الرياض .
[3] مراة بلدة ذات إمارة من إمارات منطقة الرياض يتبعها عدد من القرى . تنطق الهاء تاء أحيانا فتكتب مرات.

سرعة ممكنة، لأن السير البطيء يعني التوقف، والتوقف يعني الغوص في الرمال... وقد استغرق الأمر خمسين دقيقة لنعبر هذه الرمال، وقد أمضينا ربع الساعة الأخيرة نقود في الظلام، لقد تنفسنا الصعداء حين وجدنا على بعد ميل أو ميلين قلعة الدوادمي وقرية الدوادمي[1]، حيث اقترحنا نصب خيامنا لقضاء الليلة. وباستثناء قلعة مويه Muweih Fort التي ستأتي بعد ٢٥٠ ميل، تعتبر الدوادمي هي المكان العامر لمسافة ٥٠٠ ميل على هذا الطريق.

لكي ينصب الإنسان خيمة لا بد من أدوات إقامة هذه الخيمة، وأدواتنا كانت في الشاحنة التي غاصت في رمال النفود التي عبرناها نحن. وكذلك السيارة التي تحمل المؤن تتبعنا عبر الرمال. لقد كنا بدون فراش وبدون عشاء ولم أكن أعرف ما الذي نتوقعه أسوأ من ذلك. ولكن أمير قلعة الدوادمي حل لنا كل مشاكلنا، حين هيأ لنا غرفة في أعلى القلعة، كما ذبح لنا شاة للعشاء. ولما كنا غير مستعدين لوجبة كهذه في ذلك الوقت المتأخر، إذ كانت الساعة العاشرة، اكتفينا بالشاي والبسكويت والشيكولاتة. وفرشنا ما لدينا من مفارش وأغطية على الأرض ونمنا ليلة غير مريحة. ولكن الذي يسر علينا الأمر ما سمعناه من أصوات الشاحنات والسيارات قادمة الواحدة بعد الأخرى على مدار الليل.

---

[1] الدوادمي بلدة يتبعها عدد كبير من القرى ومناهل البادية ، فيها إمارة من إمارات منطقة الرياض ، وهي غير الدوادمي من قرى إمارة حائل .
انظر : جمال محمود حجر، " الدوادمي وخطة توحيد المملكةالعربية السعودية" ، المجلة العربية، العدد ٨٥ (نوفمبر ١٩٨٤)

كان الطريق الذي عبرناه في اليوم التالي صعبا فقد كان مليئا بالصخور الجرانيتية والبازلتية السوداء، وبالقرب منه ظهر السراب كأنه ماء، بينما الحر يلفح وجوهنا، مع أن الوقت كان منتصف مارس، ولكن الحرارة كانت عالية عند منتصف النهار، مصحوبة بحركة هواء خفيفة حارقة، تطير الرمال الساخنة في شكل أعمدة حلزونية إلى أعلى. وقد أدركت الآن كيف وردت تلك المناظر المخيفة، التي تبدو وكأنها من صنع العفاريت، إلى خواطر كتاب القصص الخيالية عن الجزيرة العربية.

التقينا بكثير من الشاحنات المحملة بالحجاج العائدين من مكة بالقرب من آبار **عفيف**[1]. وبعد أن قطعنا مائتي ميل، أقمنا معسكرا مريحا في دفينة Dafina وجاءنا عدد من البدو، الذين كانت خيامهم متناثرة هنا وهناك، وكانت نيرانهم تسطع في الظلام، فتعشوا معنا. فمن المعروف أن من يطبخ في الصحراء يكون مضيفا للبدو، إذ حينما يرى البدو نارا عند إحدى الخيام يأتون جميعا مرحب بهم على الدوام، ويجلسون مع الآخرين، أو كما يقال فإنهم يضيفون أنفسهم.

كانت الخمسين ميلا الأولى من رحلتنا صباح اليوم التالي عبر هضبة ملحية كبرى، تعرف باسم خبرا خال، وأجزاء من هذه السبخات كانت غروية لاصقة مغطاة بالملح تشبه الثلج الذي تساقط لتوه في

---

[1] عفيف بلدة ذات إمارة من إمارات الرياض يتبعها موارد للبادية وقرى ، وهي غير عفيف في منطقة الليث بإمارة مكة .

المناطق الباردة. وكان توقفنا الأول عند قلعة المويه[1]، وهـي تـستخدم كمخزن للبترول، وتعتبر نقطة فاصلة بين نجد والحجاز. وهـي نقطـة مهملة، شوهتها مخلفات القوافل وخزانات النفط.

وبعد الظهر وصلنا عُشيرة[2]، إحدى المناطق التي يفضل الملـك عبد العزيز أن يقيم فيها أثناء رحلاته، خضراء وبها أشجار، بها بئران جيدان، مغطيان بحجر ضخم، مسجل عليه إشارة تقـول: إنهمـا أعيـد بناؤهما بواسطة الملك عبد العزيز. وفي هذا المكان قضينا ليلة طيبة في معسكر كان مجهزا مسبقا من أجلنا. وما أن سمع مضيفنا أننا قد تركنـا كثيرا من لوازمنا في النفود حتى أرسل يطلب لوازم بديلة مـن مكـة، وكذلك أرسل لنا طباخ ماهر أعد لنا وجبات طيبة مشبعة بعـد معانـاة وجوع الصحراء.

وفي عُشيرة وصلنا إلى حافة هضبة وسط الجزيـرة العربيـة، حيث تصل هنا إلى أقصى ارتفاع لها (نحو ٤٠٠٠ قـدم فـوق سـطح البحر) قبل أن ننزل إلى السهل الساحلي. وفي اليوم التالي وصلنا إلـى "الطائف"، ثم إلى تلال الشفة[3] Shafa تـاركين سـياراتنا ومتـسلقين المرتفعات في بعض المناطق بإرشاد من رجال القبائل، الذين بعث بهم

---

[1] المويه من قرى الزلفي في إمارة الرياض. تنطق أحيانا أمية. وهي أيضا قرية ذات إمارة من إمارات منطقة مكة .

[2] عشيرة قرية ذات مركز من مراكز إدارة مكة يتبعها موارد للبادية . وهي غير عشيرة من قرى سدير في إمارة الرياض ، وغير عشيرة من قرى الزلفي في إمارة الرياض ، وغير عشيرة من قرى بني الرشيد في حايل ، وغير عشيرة من قرى العلا في المدينة .

[3] تقع الشفة في إمارة مكة المكرمة .

أمير الطائف. إنها منطقة صخرية جميلة جرانيتية، بارتفاعات تبلغ ثمانية أو تسعة آلاف قدم، وبها وديان ضيقة.

عدنا ثانية إلى عشيرة في طريقنا إلى جدة، فالطريق المباشر من عشيرة إلى جدة يمر بمكة، وهو طريق مغلق في وجوهنا باعتبارنا غير مسلمين. وبالتالي كان علينا أن نسلك طريقا بديلا أطول منه عبر وادي فاطمة يدعى درب النصارى، ولكننا أخبرنا أن أمطارا غزيرة هطلت عليه. ولذلك كان علينا أن نتوجه نحو الشمال حيث نغادر عشيرة في الصباح التالي، لنسلك الطريق الجديد الذي أنشأته شركة التعدين العربية السعودية، وهو طريق أطول، يسير عبر هضبة عالية من الصخر الأسود تعرف باسم "الحرة"[1] Harra... ثم وصلنا إلى الهضبة الساحلية في تهامة الواقعة بين الجبال والساحل. وحين وصلنا جدة في المساء وجدنا أنفسنا على أرض رملية من جديد.

وهنا في جدة انتهت رحلتنا فارتدينا الزي الغربي عندما دخلنا المدينة، وانفصلنا عن مرافقينا في الرحلة من العرب بكل أسف. ومن ناحيتي أقول بصدق: أتمنى بسعادة أن أبدأ هذه الرحلة من جديد من أولها إلى آخرها.

---

١ الحرة من أعمال إدارة إمارة مكة المكرمة .

XI

قيم البدو وعاداتهم كما رآها

ويلفريد ثيسجر

خلال رحلاته في الربع الخالي

١٩٤٥ – ١٩٥٠

XI

قيم البدو وعاداتهم كما رآها
ويلفريد ثيسجر
خلال رحلاته في الربع الخالي
١٩٤٥ – ١٩٥٠[1]

نشر ويلفريد ثيسجر[2] المعروف عند البدو باسم "مبارك بن لندن" كتابه عن رحلاته في جنوب شرقي شبه الجزيرة العربية (الربع الخالي) في لندن باللغة الإنجليزية عام ١٩٥٩ تحت عنوان (الرمـــال العربيـــة) Arabian Sands. ثم صدر باللغة العربية مترجماً أربع مرات خـــلال التسعينيات فـــي أعـــوام ١٩٩١، ١٩٩٢، ١٩٩٥، ١٩٩٩ فـــي دولـــة الإمارات العربية المتحدة.

وفي هذا الكتاب يصف ثيسجر الأسفار أو الرحلات التي قام بها في الربع الخالي وما حوله. وهي منطقة كان الأوربيون يجهلونها. وبعد ٢٧ سنة عاد ثيسجر إلى الجزيرة العربية بدعوة من حكومتي عمان والإمارات العربية المتحدة، فوجد أن الحياة التي وصفها في كتابه قد اختفتإلى غير رجعه، تماماً كما حدث بين أوائل العصور

(١) ويلفريد ثيسجر ، الرمال العربية ، (أبو ظبي ، موتيف ايت ، ١٩٩٩) .

2 ويلفريد ثيسجر من مواليد أديس أباباعام ١٩١٠ قام بعدة رحلات في إفريقيا والجزيرة العربية وخدم في السودان وسوريا واحبشة ونال عددا من الجوائز البريطانية ومنح لقب فارس الإمبراطورية البريطانية علم ١٩٩٥

الوسطى في بريطانيا وأواخر القرن العشرين فيها. أو بعبارة أخرى فإن ما حدث في المنطقة في عقدين أو ثلاثة، إنما هو طفرة تعادل من وجهة نظره ما جرى في بريطانيا في خمسة عشر قرنا.

كانت رحلات ثيسجر في الربع الخالي في تلك الظروف الصعبة رحلات ساحرة، "فالمشاق والأخطار اليومية والجوع والعطش والتعب من السير الطويل، كلها تعكس الظروف القاسية لحياة البدو، التي سعيت إلى التأقلم معها، فكان ذلك أساس الصحبة التي وحدتنا".

كانت الأرض قاسية وجافة، ومع ذلك عاش فيها أناس منذ آلاف السنين، ولم يتركوا من ورائهم غير "حجارة سودتها النار في مواقع الخيام... وبعض الآثار الواهنة للأقدام المطبوعة على سهوله الحصباء. وفي أماكن أخرى مسحت الرياح آثار أقدامهم. يعيش الناس هناك لأنه العالم الذي ولدوا فيه، والحياة التي يعيشونها هي الحياة التي عاشها أسلافهم من قبلهم". أو كما يقول لورنس في أعمدة الحكمة السبعة "كانت أساليب حياة البدو قاسية حتى بالنسبة إلى الذين نشأوا فيها، وفظيعة بالنسبة إلى الغرباء: موت في حياة". ويخلص ثيسجر إلى أن هذه الطبيعة القاسية "يمكن أن تسحر المرء بصورة لا يستطيع أي طقس معتدل أن يضاهيها".

وهنا نرى بعيون ثيسجر جوانب من حياة البدو؛ نرى صفاتهم وملامحهم، كيف يرون أنفسهم، وكيف يرون الآخر، كيف يعيشون في البراري، وكيف يؤمنون أنفسهم. وكيف يتناقلون الأخبار، وكيف يتعاملون معها.. إلى غير ذلك من صفاتهم، التي كان ثيسجر يخشى

عليها من الضياع. وقد أبدى أسفه عندما زار المنطقة لأول مرة بعد رحلاته في عام ١٩٧٧ فوجد أن كثيراً من تلك الخصال قد تغير، وأن الحداثة قد طغت على كل شيء.

وهذا العرض الذي نقدمه هنا يحاول أن ينتقي، من بين ما قدمه ثيسجر، ما يتعلق بقيم البدو وخصالهم وأخلاقهم، وهي جوانب يصعب أن توجد في غير كتابات الرحالة التي تسجل انطباعاتهم. ومن هنا تأتي أهمية كتب الرحالة لإكمال الصورة العامة للعرض التاريخي عن مجتمع ما في وقت ما.

ويُظهر ثيسجر، خلال عرضه لرحلاته، قلقه المستمر من أن تمتد مؤثرات الحضارة الحديثة إلى البدو في الصحراء فتفسدهم، لأن أفضل صفات العرب جاءتهم من الصحراء، وأهم هذه الصفات: إيمانهم الديني العميق، الذي وجد تعبيره في الإسلام، وإحساسهم بالانتماء الذي يربطهم كأشخاص يعتنقون نفس الدين، واعتدادهم بجنسهم، وكرمهم وحسن ضيافتهم، وكرامتهم وحرصهم على كرامة الآخرين، كإخوانهم في الإنسانية، وطيب معشرهم، وشجاعتهم، وصبرهم، واللغة التي يتكلمون بها، وحبهم الحماسي للشعر.

ويرصد ثيسجر ملاحظة مهمة، حين يقول: "لكن العرب قوم يقدمون أفضل ما عندهم في ظروف الشدة فقط، ثم ينهار كل شيء تدريجياً كلما أصبحت ظروف الحياة أكثر سهولة". ربما تحتاج هذه العبارة إلى شيء من التأمل والدراسة، فالبدو – كما يقول لورنس–

"انضباط صارم وشديد"، وهي تبدو على كل منهم بحسب مرتبته ومكانته (ص ٨٧).

إن عرب الصحراء (البدو) هم الذين فرضوا خصائصهم على الجنس العربي، كما يرى ثيسجر. فقد كانت عادات الصحراء هي التي لقيت قبول أهل المدن والقرى على حد سواء. وهي التي انتشرت مع الفتوحات العربية الإسلامية إلى أجزاء مختلفة من العالم. صحيح انه لم تكن لدى عرب الشمال تقاليد حضارية، وكان الفن المعماري الوحيد الذي يحتاجه الكثيرون ينحصر في ترتيب ثلاثة أحجار كموقد يضعون عليه إناء الطهي، وكانوا يعيشون في خيام سوداء في الصحراء، أو في غرف خاوية من أي أثاث في المدن الصغيرة والقرى. ولم يكن لديهم ذوق أو ميل للكماليات. وجل ما يطلبونه هو القليل جداً من ضروريات الحياة. ومع ذلك كانت حياة العربي تنطوي على كثير من النبل، وهذا ذروة الكرامة.

وقبل الإسلام كان البدو يتسمون بالطمع والجشع (ص ٨٧) وحب الغزو، يحتقرون كل الغرباء، ويرفضون ضبط النفس، لكنهم اتحدوا في القرن السابع الميلادي للمرة الأولى في تاريخهم تحت راية الإسلام، واكتسحوا كل المناطق التي دخلوها وفرضوا أنفسهم على المجتمعات التي غزوها (ص ٨٨).

يقول ثيسجر وهو يرصد التحولات التي أحدثها الإسلام في حياة العرب، لن أستهجن الافتراض أنه في حالة انقراض حضارات اليوم كما حدث لبابل وأشور، فإن كتب التاريخ المدرسية ستخصص بعد ألفي سنة

من الآن بعض الصفحات للعرب من دون إشارة حتى إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فهو يبدي إعجابه بالقيم والتقاليد التي لمسها مع العرب خلال رحلاته التي واجه خلالها متاعب كثيرة، ويقدم ذلك النموذج فيقول: بينما كنت أنعم بالدفء داخل كيس النوم، كان الآخرون يرتعشون من برد الرياح الشمالية، إنهم من البدو، وهذه الصحراء الجرداء الخاوية حيث لا ظل ولا ملجأ هي موطنهم. وأي واحد منهم كان بإمكانه العمل في الحدائق المحيطة بصلالة، لكنهم كلهم كانوا يحتقرون تلك الحياة السهلة، ويعتبرون أنها لمن هم أقل منهم شأناً، حيث لا تجد بين البدو من يعمل بالزراعة على شاطئ الصحراء، إلا المسحوقين الذين لا يقدرون على حياة البداوة. (ص ٨٩).

وهنا تظهر بوضوح ملامح الانتماء عند الأفراد تجاه القبيلة، فالبدو يعيشون في مجتمع قبلي، فكل شخص ينتمي إلى قبيلة، وكل أفراد القبيلة أقرباء، وكلما كان النسب أقرب كلما كان الولاء أقوى من الفرد تجاه القبيلة. ويهيمن هذا الولاء على المشاعر الشخصية إلا في حالات استثنائية، فعند الحاجة يقوم الفرد بمساندة أفراد القبيلة بصورة غريزية، كما يساندونه بالمثل. فلا أمن للفرد في الصحراء خارج إطار القبيلة. وهذا يجعل القانون القبلي المبني على الرضا ساري المفعول بين أكثر الناس وحدانية في العالم، لأنه لا يجوز في آخر المطاف نبذ الرجل الذي يرفض قبول القرار القبلي. والحقيقة أن القانون القبلي لا يسري إلا في حالات الفوضى، وينهار حالما يتم فرض السلام في الصحراء (وهل احتاجت المجتمعات إلى القانون إلا عندما خرج الناس على الفطرة السوية). ففي حالات السلم يمكن للرجل الذي يعترض على قرار ما أن

يرفض الالتزام به، وعند الضرورة يمكن أن يترك قبيلته ويعيش وحيداً، إذ لا توجد سلطة مركزية داخل القبيلة تستطيع أن تنفذ القرار(ص ٨٤).

والبدو لا يشكون إطلاقاً في تفوقهم. وحتى الآن فإن قبائل مثل مطير وعجمان لا تعتبر أن تزويج إحدى بناتها للملك مثلاً أمر يشرفها، طالما أنه من خارج نسيج القبيلة، فالنسيج القبلي المتماسك أقوى من السلطة المركزية. يقول ثيسجر: حين سألت بعض الرواشد ممن زاروا الرياض كيف خاطبوا الملك (عبد العزيز آل سعود، ملك المملكة العربية السعودية). فأجابوا بدهشة "كنا ندعوه عبد العزيز، وكيف يمكن أن ندعوه بغير اسمه ؟".

وعندما قلت: ظننت أنكم تخاطبونه باسم: "صاحب الجلالة".

قالوا: "نحن بدو وليس لدينا ملك إلا الله".

ولكن شوكة البدو بدأت تتكسر بعد الحرب العالمية الأولى، نتيجة لدخول السيارات والطائرات والهواتف (وهي من آليات الحكومات الحديثة لإحكام قبضتها على مجتمعات الصحراء) التي لم تعد ملاذاً للغزاة، وإنما مجرد سهل مكشوف، لا يصلح مخبأ لأحد من الخارجين على السلطة (والذين يدرسون مجتمعات البادية يعرفون جيدا أنها قاومت إدخال هذه الوسائل الحديثة في الاتصال باعتبارها من عمل الشيطان، فضلا عن أنها تغير نمط حياتهم) (ص ٨٤).

البدو الذين يتحدث عنهم ثيسجر، يشكلون ربع سكان الجزيرة العربية تقريباً حسب تقديره. ومع ذلك فلا أحد غيرهم يستطيع أن يعيش في الصحاري التي تغطيها الرمال. فوسط شبه الجزيرة كان ملكاً لهم، وكل المسافرين بين الواحات والبلدات وقوافل الحجاج، وجميع الذين يتنقلون عبر الجزيرة العربية عليهم أن يدفعوا ضرائب المرور لهؤلاء البدو، وإلا فإنهم سيسلبونهم ما يشاءون، ويعرضونهم لخطر حقيقي، وفوق ذلك فإنهم يبتزون القرويين والمزارعين والقبائل الأضعف. ولذلك يحرص البدوي على أن يكون قوياً ليتمتع بالحرية. ولهذا كانت روح التعالي أخلاقياً وجسديا أمرا واردا بقوة عند البدو، لأنهم كانوا يقدرون الحرية أكثر من غيرهم، بل وأكثر من تقديرهم للراحة والرفاهية. وهم يتباهون بالمشاق التي يواجهونها في حياتهم اليومية القاسية، وهم لا يعرفون أنها قاسية إلا عندما أطلعناهم على مستوى الرفاهية التي نعيشها.

ولذلك فأهل القرى يحتقرون البدو، ويصفونهم بالتوحش، وبلادة الذهن، والخروج على القانون، ويغربون عن دهشتهم لتحملهم صعوبات الحياة، وشجاعتهم النادرة وكرمهم الذي يفوق الوصف. ويرى ثيسجر أن هؤلاء الرجال الجائعين (يقصد البدو) ذوي الثياب الرثة، الذين تعرضوا للذم، تحولوا إلى أبطال الماضي الأسطوريين (ص ٨٣). لماذا تحولوا إلى أبطال، لأن البدو، كما لمس ثيسجر، يرون أن كل الغرباء أعداء إلى أن يعلنوا عن أنفسهم. ففكرة الاستعداد للقتال جزء رئيس من ثقافة البدو في التعامل مع البيئة والحياة، وبالتالي لا يجب وصفهم بأنهم عدوانيين، لأن مثل هذا السلوك من متطلبات حياتهم في بيئتهم.

ولهذا كان متولي الحراسة يقف على تلة عالية، ليراقب القادمين من بعيد، ليتأكد من توجهاتهم وحسن نواياهم. ويحكي ثيسجر أنـــه ذات مرة بينما كان الجميع يستسقي عند بئر ماء، أعطى الحـــارس الواقــف أعلى المنحدر إشارة إنذار، "فحملنا بنادقنا، واتخذنا مواقعنا حول البئـــر، وجرى جمع البنادق على عجل وراء التلة، ورأينا بعــض الأشـــخاص الراكبين يقتربون من بعيد، أطلقنا عيارين فوق رؤوسهم، فتقدموا بثبات وهم يلوحون بكوفياتهم، وقفز أحدهم من على ظهر ناقته، وقذف رمـــلاً في الهواء، فأطمأنينا. وحال اقترابهم، قال أحدنا إنهم من الرواشد، فقــد تعرف على نياقهم، لأن البدو يستطيعون التعرف على النياق من بعيــد أكثر من قدرتهم على تمييز الرجال" (ص ٩٠ و ٩١).

ولهذا لم يكن في إمكان ثيسجر أن يجوب الصحراء بدون دليـــل من البد فنراه استعان بعدد من قبيلة "كثير" في رحلته الأولى عبر الربع الخالي (مثل: سالم تمتايم وسلطان ومسلم بن طفل ومبخوت وابن تركية وابن عنوف وغيرهم) وكانوا يبدون له أفضل من الدناقل البدائيين، لكنه سرعان ما اكتشف أنهم على استعداد لمساعدته باعتباره مصدراً للثروة، لكنهم مع ذلك لم يكن لديهم أدنى شك "بأنني أقل مــنهم مــستوى، فهــم مسلمون وبدو، أما أنا فغير ذلك". وهذا مصدر فخرهم وتميزهم علـــى غيرهم، وبالتالي فإن الآخر دائما أقل شأنا في نظرهم، ولم يسبق لهم أن سمعوا عن البريطانيين، وكل الأوربيين بالنسبة لهم "مسيحيين" وعلـــى الأرجح "كفرة"، والجنسية لا تعني لهم شيئاً. فعالمهم هو الصحراء، ولا يهتمون إلا قليلاً بما يحدث خارجها. ولا يعرفون قوة أكبر من قوة عبد العزيز آل سعود، وبالطبع ينطبق هذا على المناطق الداخلية المعزولــة

من شبه الجزيرة العربية. والبدو يلاحظون كل شيء ولا ينسون شيء (ص ٤٥و٤٦) فلديهم ذاكرة قوية تفرضها الأمية.

والبدو ينتقدون بلا رحمة أولئك الذين لا يتحلون بالصبر والكرم والسخاء، وطيب السجية والشجاعة والمروءة، ولا يتساهلون مع الغريب. ويكشف ثيسجر عن حالة العزلة التي يعيشونها (ص ٤) إذ لاحظ وهو في بداية رحلته لعبور الربع الخالي، أن أحد البدو من مرافقيه سأله: أين كنت؟ وأين الحجاز؟ وهل هناك بدو؟ (ص ٧١).

الآخر إذن في ثقافة البدو غائب، أو مهمل، أو غير موجود. ولهذا كان من الصعب على ثيسجر أن يتكيف مع نمط حياة البدو في البداية، وخصوصاً تجاه وجهة نظرهم إلى العالم الخارجي، وفي المقابل كان صعباً عليهم قبول "ما يعتبرونه تصرفات شاذة مني. لقد كنت معتاداً على الانفراد وأن أخلو بنفسي، أما هنا فلا شيء من ذلك يتحقق، حتى ولو أردت أن أتحدث مع أحدهم منفرداً؛ لأن الآخرين سيأتون حالاً لاستطلاع الأمر والمشاركة في الحديث، كانوا يستمعون لكل كلمة قلتها". ومع ذلك "فقد شعرت في البداية بعزلة بينهم". (ص ٥٦).

فارتباطهم بالبيئة والحيوانات التي تعيش معهم فيها، أقوى من قدرتهم على الارتباط بالبشر القادمين إليهم من خارجها، والذين يعتبرونهم غرباء وربما أعداء، ولذلك فإن علاقاتهم بحيواناتهم أقوى من علاقاتهم بالآخر. ومن هنا يمكن تفسير أن قدرة البدو في التعرف على الجمال أكبر من قدرتهم في التعرف على الرجال. ومع ذلك فهم حين

يلتقون الغريب عنهم من أبناء الصحراء يعرفون على الفور إلى أي قبيلة ينتسب، استناداً إلى إشارات عديدة تلاحظها عيونهم المدققة، ومنها:

- شكل حزام رصاصه وما إذا كان مشدودا بإحكام أو متدلياً.
- شكل ربطة كوفيته وما إذا كانت ملفوفة حول رأسه أو مرتخية.
- شكل غرزات قميصه وثنايا مئزره.
- شكل قراب بندقيته.
- شكل النقوش التي تزين سرج راحلتهِ.
- طريقة طي بساطه.
- طريقة مشيته.

* كل الصور السابقة تكشف عن هوية البدوي الغريب عن القبيلة.

أما القادمون من خارج الجزيرة العربية (ص ٩١)، فهؤلاء ليسوا فقط غرباء، وإنما هم في نظر البدو أعداء، ولذلك لابد أن يكونوا في حماية أفراد إحدى القبائل، كما كان الأمر مع ثيسجر نفسه. وحكايات البدو ومغامراتهم مع الآخر كثيرة. ويحكي ثيسجر قائلا: في إحدى الأمسيات "تركنا جمالنا ترعى بالقرب من بعض أشجار الأكاسيا، بحراسة ثلاثة من رجالنا، وكان رجال راشد يؤدون الصلاة. وفجأة صاح أحدهم هناك رجال خلف الجبل، فتوقفوا عن الصلاة، وهرعوا لإحضار الجمال المبعثرة من حولنا. وبدأنا في إطلاق النار على المغيرين، الذين لم يعرفهم أحدنا. وتطوع رجل من (قبيلة) المناهل كان معنا ليذهب للتعرف عليهم، وتقدم أحدهم نحوه، وتعانقا، لقد كانوا من

المناهل يطاردون جماعة من (قبيلة) دهم. فانضموا إلينا. وكنا قد اشترينا عنزة لوجبة العشاء، فأعددناها لضيوفنا".

وهكذا يظهر التناقض الظاهري واضحاً، من خلال اعتبار كل غريب عدواً إلى أن يتم التعرف على هويته (ص ٦٤). فتتحول العداوة إلى ود وصداقة وضيافة وكرم. ويقص ثيسجر أنه في رحلته الأولى للربع الخالي زار مخيماً (لقبيلة قرة) على هضبة صغيرة فوق منحدر تكسوه الأشجار والنباتات المتسلقة. وكانت هناك عائلة تعيش في كهف منخفض، عند الجزء الأسفل من جرف كلسي، أرضه مفروشة بروث الماعز، "فجلسنا نتحدث معها عند مدخله، كان هناك رجل عجوز نصف أعمى، وصبيان في السادسة عشرة، لهما غرتان كعرف الديك، ورجل في متوسط العمر مفتول العضلات، يحمل سيفاً مستقيم النصل. يجلس على مقعد على شكل ترس دائري مصنوع من الخيزران المغطى بالجلد. أحضر لنا أحد الأولاد بعض اللبن في وعاء خشبي. وقد سبق لي أن نمت في مثل هذا الكهف في العام الماضي، تفاديا للمطر (ص ٧٣).

المهم أن البدوي يجود عادة بما لديه، مهما كان متواضعاً حتى ولو كان ما يجود به هو كل ما يملك. ولكن الصورة تبدو متناقضة أحياناً، حين يحرص البدوي على أن يأكل على حساب الغير. ويقدم ثيسجر صوراً من هذه العادة فيقول: "كان البدو يتجمعون كل ليلة في مخيمنا ليأكلوا على حسابنا"، فكل منهم سمع أن المسيحي (يعني ثيسجر نفسه) يحمل معه كميات كبيرة من الطعام، ولم يكن هؤلاء الضيوف غير المرغوب فيهم ينتظرون توجيه الدعوة إليهم قبل أن يجلسوا معنا

لتناول الطعام، فكانوا ينضمون إلينا ويشاركوننا ما نملك ماداموا معنا، وقد تقبل رفاقي الأمر بترحاب، لأنهم كانوا سيفعلون الشيء نفسه لو كانوا مكانهم، وبالتالي فإنه سلوك متبادل. وفي كل الأحوال لا يملك البدوي أن يصرف ضيفاً من دون إطعامه.

ويبدو أن ثيسجر لم يفهم هذه العادة عند البدو في البداية، فيقول: "لكنني كنت أغضب لأنهم كانوا يفترضون أن علينا إطعامهم، وأشعر بانزعاج من كثرتهم". ولكنها حياة البداوة، التي يتحركون فيها جماعات، فالفرد لا قيمة له في الصحراء (ص ٥٧).

وأثناء استعداده لعبور الربع الخالي في أكتوبر ١٩٤٦ جهز ثيسجر طعاماً كثيراً، اعتقاداً منه أن الرواشد سيأخذون نصفه لعائلاتهم، وأن البدو سيأتون من كل حدب وصوب ليأكلوا على حسابه، وهو يعلم أنه في الصحراء لا يمكن أن ترد ضيفاً (ص ٧٠).

هذه الطباع التي كان ثيسجر يغضب منها أحيانا، وجد نفسه مضطراً لممارستها، فهو يقول: "وصلنا البئر، وسقينا الجمال، ثم جلسنا على مقربه منه دون أن يشرب أحد منا، لأنني لم أرغب في أن أبدو على العكس منهم قليل الصبر، لكنني في نهاية الأمر طلبت ماء، فقدم لي أحدهم كاساً مملوءة بالماء، وقدمتها بدوري للعجوز (تمتايم) لكنه طلب مني أن أشربها، لأنه سينتظر وصول الآخرين، فيشرب معهم، إذ لا يجب أن يرتوي ويبقوا هم عطشى. لقد سبق لي (يقول ثيسجر) أن تعلمت أن البدوي لا يأخذ المبادرة بتناول الطعام في غياب رفاقه. لكن هذا الامتناع بدا لي مبالغاً فيه، فالآخرون لم يصلوا إلا بعد خمس

ساعات. فاشتط غضباً وازددت عطشاً". فهو لم يألف هذا السلوك من قبل (ص ٥٨).

وقبل الطعام وبعده، ومن حين لأخر يتناول البدو القهوة المعروفة بالقهوة العربية، كما يشربون الشاي، وشرب القهوة له أصول رسمية، ولا يجب أن يتم على عجل. فكان ساقي القهوة يقف ويصب بضع نقاط في فنجان صيني صغير لا يزيد إلا قليلاً عن حجم البيضة، ثم يقدم القهوة منحنياً بعض الشيء، ويدور بها علينا مواصلاً صب القهوة إلى نفس الشخص حتى يهز الفنجان قليلاً ويعيده إليه، دلالة على أنه اكتفى. وفي العادة لا يتناول أحد أكثر من ثلاثة فناجين. (ص ٤٩و٥٠). "كنا نأكل التمر ونشرب القهوة التي يتلهف إليها رفاقي وكأنها مخدر. بعضهم كان يدخن، وتلك هي المتعة الثانية بعد القهوة" (ص ٥٤).

لكن كيف كان البدو يتناقلون الأخبار ويتحاورون بشأنها؟

لا يمكن للبدوي أن يترك فرصة تفوته دون تبادل الأخبار مع كل من يلتقيه وهو على ظهر ناقته، فذلك من بين وسائل الاتصال وجمع المعلومات (ص ٥٩)، فالصحراء كانت خالية يغمرها الخوف. يقول ثيسجر: "كنا نرى بعض الرعاة عن بعد يقودون قطعانهم على عجل، فينزل بعض الرواشد عن نياقهم، ويذرون الرمل في الهواء، في إشارة واضحة للنوايا السلمية، ثم يتقدمون نحوهم، ويسألونهم الأخبار، التي

كانت تفيد دوماً أن غزاة من قبيلة (دهم) اتجهوا نحو القرى قبل أيـــام، وكانوا في جماعات عائدين إلى بلادهم في اليمن مع الغنائم التي استولوا عليها، وتضاربت الأنباء حول عددهم فهناك من قال إنهم ثلاثمائـــة، أو مائة، وكل ما عرفناه أن عددهم كبير، وأنهم مسلحون جيداً".

وقالت بعض نساء (المناهل) اللواتي كن مع قطيـــع مـــاعز، إن أربعين من رجال قبيلة دهم ذبحوا لهن ثمانية من عنزاتهم قبل ثلاثة أيام وأكلوها. وقبل ذبحها انطرح الغزاة أرضاً، وامتصوا حليب الماعز مـــن ضروعها بأفواههم. وتعرف بعض هؤلاء النسوة على بعض الرواشـــد الذين كانوا معي، وطلبوا الانتباه والحذر من هؤلاء المغيرين من قبيلـــة دهم. وهنا يجب أن نلاحظ أن المغيرين لم يعتدوا علـــى النـــساء، بـــل أكرموهن (ص ٦٣).

من المألوف في الصحراء المفتوحة أن تنطلق أصـــوات البـــدو عالية، لأنها تنطلق في فضاء مفتوح، ونظراً لأن ذلك لم يكـــن مألوفـــاً لثيسجر، فقد كان يعجب من الصخب الذي يرافق عملية تحميل الجمال، التي كانت تثور ويعلو رغاؤها لدى الاقتراب منها، وخـــصوصاً عنـــد وضع الحمولة على ظهرها. فكيف كان البدو يقومون بـــالغزو Raids عندما يكون السكون ضرورياً؟ الواقع أنهم كانوا يستعدون لذلك فيكممون أفواه الجمال، لأن رغاء الجمال كان يسمع على بعد ميلين في الصحراء المفتوحة (ص ٥٠).

يقول ثيسجر، واصفاً الطريقة التي كان البدو يتكلمون بها، كنـــا بعد الأكل نجلس حول النار نتحدث، والبدو عـــادة يتكلمـــون بـــصوت

مرتفع، حتى لو كانوا لا يبعدون عن بعضهم إلا مسافة قصيرة، لذلك فإن جميع من في المخيم كانوا يسمعون ما يدور من حديث، ويمكن لأي شخص يجلس حول نار أخرى أن يشارك في الحديث من المكان الذي يجلس فيه، وبالتالي لم تكن هناك خصوصية في الأحاديث، لأن كل شيء في ثقافة البدو مشاع (ص ٥٥).

وعندما ذهبت لاستلقي كان من الصعب أن يغمض لي جفن، فلقد التقى رجال من المناهل مع رجال من الرواشد، وراحوا يتحدثون بحماس وبصوت مرتفع على بعد خطوات مني (ص ٦٦).

في هذا السياق نفسه يقول ثيسجر: إن بعض أفراد قبيلة كثير جاءوا لمساعدته في حمل أثقاله استعداداً للرحلة، ولكنهم كانوا وقت إنجاز هذه المهمة "يتجادلون طويلاً فيما بينهم بأصوات مرتفعة... وتقدم رجل خشن، عيناه تقدح ناراً... وأمسك بأحد الجمال رافضاً تحميله، وبدأ يقوده بعيداً، وأمسك رجل آخر بلجام الجمل وأوقفه، واعتقدت أنهما سيتقاتلان، وتجمهر الجميع وارتفع صياحهم، وتبادلوا كلمات لم أفهم إلا القليل منها. وأخيراً أعيد الجمل وجرى تحميله" (ص ٤٤).

وفي النهاية يدرك ثيسجر أن:

البدو يتحدثون كثيراً بالسليقة، ويستعيدون ذكريات الماضي على الدوام، فهم يقتلون الساعات الطوال من اليوم بالحديث طوال الليل وهم يجلسون حول نار المخيم. تعودوا على قسوة الصحراء، وشرب مياهها الأسنة المرة، وتحمل الرمال، والبرد القارص، والحر الشديد، والوهج

الذي يعمي الأبصار، في أرض لا ظل فيها ولا سحاب. لذا كانوا يثورون لأتفه الأسباب (ص ٤٦)؛ وربما كان هذا سبباً آخر لارتفاع أصواتهم.

والبدو يهتمون جيداً بإلقاء التحية وهم سائرون، وينهضون وقوفا عندما يردوا التحية، إذا كانوا جلوساً (ص ٤٩). ويواصل ثيسجر انطباعاته فيقول: "بعد العشاء جلسنا في حلقة وتبادلنا الحديث، وهو العمل المفضل لدى البدو، فهم يتحدثون بلا ملل. ويروي أحدهم القصة نفسها عدة مرات، للأشخاص أنفسهم، في غضون شهرين، ومع ذلك يستمعون باهتمام ظاهر، ويعتبرون السكوت مشقة لا تحتمل. ومع ذلك ففي تلك الليلة خيم الهدوء، عندما أخذ أحدهم يلقي الشعر. فالعرب ينظمون الشعر بسهولة خلال ترحالهم، ويتذوقونه جيداً. وقد سمعت فتى يقدم وصفاً شعرياً على السليقة لبعض المراعي التي رآها، كان يعبر تلقائياً عن مشاعره وأحاسيسه. ومع أن البدو شديدو الإحساس بجمال لغتهم، إلا أنهم لا يرون جمال الطبيعة ولا يتذوقونها. فلون الرمال، وغروب الشمس، وانعكاس ضوء القمر على البحر، كل هذا لا يكترثون به ولا يحرك فيهم شيئاً (ص ٧٧).

يقول ثيسجر: إنه نظر من على قمة جبل قرة إلى الأشجار الخضراء والعشب وفتنة الجبال، وسأل أحدهم، أليست هذه المناظر جميلة؟ فجال ببصره وكأنه لم يفهم السؤال وقال "لا... إنه مرعى رديء"، فكل ما كان يهمه هو مدى ثراء المرعى، بصرف النظر عن قيم الجمال فيه. وحين استنبط أهل حضرموت هندسة معمارية بسيطة،

متناسقة وجميلة، كان مصير هذه الهندسة الفناء، لأن ذوق البدو يفسد بسرعة؛ فهناك أبنية جديدة وقبيحة في آن، صممها مهندسون حديثون من العرب، بدأت ترتفع في هذه المدن القديمة، وعندما رآها رفاقي أعجبوا بها كثيراً، وقالوا "هذه بنايات رائعة". ومع ذلك فقد كان من العبث مجادلتهم (ص ٧٨).

كنت أتضايق من التملق الصبياني الذي كان البدو يبدونه تمهيدا لطلباتهم، وفي الأيام الأولى من رحلتنا، كنت أتساءل كلما اقترب مني أحدهم، وأقول: "والآن (بعد هذا التملق) ماذا سيطلب مني؟". ولم أكن قد تعلمت أن البدوي لا يعتبر الاستجداء عيباً، حتى إنه عندما ينظر إلى هدية تقدمها له يقول: هل هذا كل ما ستعطيني إياه؟ "كنت أعتقد أن حياة البدو ليست إلا عملية طويلة من الاستجداء الذي لاينقطع"، كنت أرى الجانب السيء في شخصياتهم، وهو ما خيب أملي وأثار امتعاضي، وغضبي لشعورهم بالفوقية. ونتيجة لذلك كنت شديد العناد، وبصورة بعيدة عن المنطق الذي ألفته (في حياتي السابقة)" (ص ٥٦).

ومع ذلك يقر ثيسجر ببعض القيم العليا عند البدو، ويشير إلى صفة الأمانة التي تلازمهم في حياتهم، فالأمانة عند البدوي ليست محل خلاف، فهو أمين بالسليقة، فهذا ثيسجر يعدد الأشياء التي حملها معه في رحلته الأولى عبر الربع الخالي، وكان من بينها النقود التي وضعها في أكياس من الخيش مربوطة بخيوط تخينة، ثم توضع في الخرج المحمول على ظهر الجمل، ومع أن الخرج لم يكن مربوطاً، ومع أن رفاقه كانوا في حالة فقر مدقع، فإن النقود ظلت في أمان، كما لو كانت مودعة في

أحد المصارف. ويبدي ثيسجر إعجابه الشديد بأمانة البدو فيقول: "لقد أمضيت خمس سنوات مع البدو ولم أفقد مليماً واحداً، ولا حتى رصاصة، مع أن قيمتها في نظرهم تفوق قيمة النقود".

كانت أكياس النقود ملأى بدولارات (ريالات) ماريا تريزا (النمساوية) التي تعود إلى عام ١٨٧٠، والتي لا يزال يجري صكها حتى ذلك الوقت. وهي بحجم قطعة الخمسة شلنات. وتعادل قيمتها نصف ذلك، ولكنها كانت النقود الوحيدة المقبولة في بلاد العرب ويسمونها ريالات [1]. والبدو لا يعترفون بالعملات الورقية، وإنما يثقون فقط في العملات الفضية الخالصة (ص ٧٢).

والأموال التي يكتسبها أفراد البدو توزع فوراً على عائلاتهم وقبائلهم. وكان ثيسجر يعرف أن المال الذي يدفعه إلى الأفراد الذين يرافقوه إنما يقسم فيما بينهم وبين آخرين، "رغم أنهم لم يرافقوننا، وكان رفاقي يطالبونني بأن أدفع لهم مقدماً، لأن البعض طلب منهم قرضاً، وبسبب وجود المال لديهم، فقد كان من غير اللائق أن يرفضوا لهم طلباً" (ص ٨٥).

والبدو في الصحراء لا يحتاجون كثيراً إلى المال من أجل معيشتهم؛ لأن قطعانهم توفر لهم كل شيء تقريباً: المأكل والمشرب والمسكن وبعض الملبس، ولكنهم يحتاجون إلى بعض المتطلبات مثل:

---

[1] انظر كتابنا : السعوديون والأزمة المالية (الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥).

الثياب وأواني الطبخ والذخيرة والتمر والحبوب، والقهوة والتبغ، ولهـذا كانوا يزورون أسواق القرى والمدن، فيبيعون في المقابل جملاً أو عنزة أو بعض الزبد والقرب أو البسط أو الـسرج (ص ٨٥ و ٨٨). والبـدو يحبون المال ويتحدثون عنه كثيرا؛ لأن بضعة ريالات قد تكون الفـرق بين الموت جوعاً أو البقاء على قيد الحياة (ص ٨٦).

لقد صقلت التجربة شخصية ثيسجر ذات الجذور المختلفة الثقافة، فبعد ثلاثة أشهر صعبة من السير المتواصل (كانت هي الفترة الأولـى من الرحلة) يقول ثيسجر مقيماً تجربته في التعامل مع البـدو: "تعلمـت الإعجاب برفاقي، وتقدير مهارتهم، ووجدت من السهل معاشرة هـؤلاء البدو، أكثر من غيرهم من سكان المدن الأكثر تقدماً، والذين تخلوا عـن عاداتهم وتقاليدهم، ونقلوا بعض سلوكياتنا الحضرية، لقد كنـت أفـضل كثيراً عزة النفس عند البدوي، على مشاعر الأفندي، التي يمكن جرحها بسهولة، وبدأت أرى الصحراء كما يراها البدو، وأقدرها كما يقدرونها" (ص ٥٨).

وفيما يلي سنعرض لبعض الجوانب الاجتماعية والسلوكية، التي تشكل صورة البدوي، كما حاول ثيسجر أن يرسمها من خـلال كتابـه، الذي نتناوله الآن، وهو الرمال العربيـة **Arabian Sands** . وفيـه يصف ثيسجر لقاءاته مع البدو بالتفصيل، وهو ما يساعد علـى رسـم الصورة التي أرادها للبدو. فقد كان يسير معهم، ويجلس معهم، وينام كما ينامون، ويأكل كما يأكلون، فيقول في احترام شديد لعاداتهم: "وفيما أنـا بين العرب كنت أجلس كما يجلسون، وأتصرف مثلهم، كي يقبلوني بينهم

كواحد منهم، وكان جلوسي على طريقتهم كواحد منهم يتعب عضلاتي، وكنت أشعر بسعادة حين يحل الليل وأضطجع وحدي". ويضيف: سبق لي أن "جلست على الأرض، لكني في تلك الأثناء كنت أسافر مع رجال أعرفهم جيداً، ومعهم كنت أستلقي حينما أريد، أما الآن فإنني أنزل عن ظهر ناقتي بعد مسيرة طويلة، وأجلس بوقار كما يجلس العرب، وكنت أمشي حافي القدمين كما يفعلون" (ص ٥٥).

وحين كان يمارس البدو عملهم، كان ثيسجر يشاركهم هذا العمل، مهما كانت بساطته، فهو يحكي شيئاً من التجارب التي واجهته خلال رحلته الأولى، حين انشغل مرافقوه وقت الراحة بإعداد قرب الماء، وتجديل الحبال، وإصلاح السروج، والعناية بالجمال، "وقد كنت مدركاً أهمية ما يقومون به"، فهو يتعلق بجوهر عملهم (ص ٤٥).

وفي مناسبة أخرى كان أحدهم يطحن البن في هاون نحاس، ويغير ضربته على الهاون فيخرج صوت أشبه بالنغم، له إيقاع موسيقي. في ذلك الوقت "كنا نقوم بخبز الخبز للإفطار، وإلا فإننا نأكل بقايا الطعام المتبقي من الليلة السابقة، ثم نشرب الشاي والقهوة السوداء" (ص ٤٩).

هكذا كان ثيسجر مندمجاً في حياة البدو وعلى طريقتهم، وقد ساعده رضاه بأسلوب حياتهم، وقناعته بالطريقة التي يعيشون عليها، ساعده ذلك في التفاعل معهم بعمق. فهو يقول :

"تعلمت من أسفاري مع البدو استخدام أغراضهم، وصرت مقتنعاً بأن من الخطأ إدخال التجديد من الخارج عليهم، مهما كان ذلك أفضل

لهم. فالعرب يعرفون جيداً الأدوات التي يستخدمونها، وقد صمدت أمام تجارب الزمن، فالقرب المصنوعة من جلد الماعز، والتي يضعون فيها الماء، يمكن لفها وهي فارغة، بحيث تبدو عديمة الوزن، وإذا ما رشح الماء منها يعالجونها بالزبدة، وإذا ثقبت يتم سد الثقوب بالشوك، أو بقطع خشبية ملفوفة بالقماش (كالخابور) وقد يبدو هذا العمل غير مضمون، ولكنه ناجح بشكل مدهش".

ويضيف ثيسجر: وعند تعبئة الطحين والأرز والتمر كان ذلك يتم في جعب (جمع جعبة) أخرى من الجلد، يمكن تعليقها بمحاذاة السرج بسهولة، فتتوازن مع قربة الماء المعلق على الجانب الأخر. أما الزبدة فتنقل عادة في عبوات مصنوعة من جلود السحالي التي يبلغ طولها حوالي ١٨ بوصة (ص ٧٦).

ويصف ثيسجر بيوت البدو فيقول: "مررنا بعائلتين أو ثلاث من بيت كثير. لم يكن لديها خيام (المبيت التقليدي للبدو) كانت تقيم تحت الأشجار، أو في الملاجئ الصخرية (كهوف)، فلا أحد يستخدم الخيام إلا العرب (البدو) المقيمين في الصحراء... قضينا الليل لدى عائلة مبخوت تحت شجرتين على فسحة من الرمل. زوجته وولداه كانوا هناك، أكبر أبنائه في الثانية عشرة... قام مبخوت فذبح عنزة ثم طبختها زوجته، التي تبدو في منتصف العمر، نحيفة مكشوفة الوجه، ترتدي ثوباً أزرق داكن، كالذي ترتديه النسوة عادة."

كان مبخوت يمتلك خمسة جمال وثلاثين عنزة. ولكنه لا يمتلك حيوانات أخرى، ولا حتى دجاج أو كلاب. ولاحظ ثيسجر أن قبيلة قرة

تمتلك قطعاناً من الماشية، أما قبيلة المناهل فتمتلك الخراف التي لم يشاهدها ثيسجر من قبل عند الرواشد أو عند بيت كثير. وفي بساطة شديدة يصور ثيسجر المنظر بأن كل ما لدى العائلة كان مطروحاً على الرمال: قدور، وطاسة، وقرب، وكيس طحين، وسردين مجفف، وخرق، وخرجين، ودلو من الجلد. وهذا كل ما يملك البدوي من أدوات وأثاث (ص ٧٨ – ٧٩).

والجمل سفينة البدوي في الصحراء، فالصحراء بحر من الرمال، وقد كتب كثير من البريطانيين عن الجمال، لكنني عندما أفتح كتاباً، وأرى ما يتضمنه من استخفاف مألوف، ونكت تافهة، أدرك أن معلومات المؤلف سطحية". هكذا يبين ثيسجر الفرق بين من كتب عن بعد لم يسبق له أن عاش بين البدو، وبين الذين كتبوا عن قرب ومعرفة حقيقية بالبدو، الذين يقدرون الجمل ويسمونه "هبة الله"، لأن صبر الجمال يستحوذ على قلوبهم. ويضيف ثيسجر معبراً عن تقدير البدوي للجمل قائلاً: "ولم أر بدوياً يضرب ناقة أو يسيء معاملتها، بل تحتل حاجاتها كل اهتمامه. وليس ذلك لأن معيشة البدوي تعتمد على العناية بدوابه، وإنما لأن البدوي يكن مودة حقيقية لها. وكثيراً ما شاهدت رفاقي يداعبون جمالهم، ويقبلونها، ويعبرون عن إعجابهم بها".

ويسجل ثيسجر حالة نادرة عن إساءة البدو للجمل، فيشير في اقتضاب إلى استنكار معاملة الجمل معاملة سيئة، ويقول في العام ١٩٤٥ كنا نسير في أرض محروثة قرب (تريم) صادفنا قروياً كان يضرب جملاً، فقفز عدة رجال من الرواشد من على ظهر نياقهم واحتجوا عليه

بغضب. ولدى متابعة سيرنا عبروا عن احتقارهم لذلك الرجل". لعل هذا الرصد يكشف عن ظاهرة أن الرحالة كان يرصد كل شيء (ص ٧٥)، وأن ما يبدو خارجاً على العادة كان يلفت انتباهه إلى درجة التسجيل والتوثيق والتحليل.

ويرصد ثيسجر طبائع الجمال ويسجل: "كنا نسير عبر الصحراء ومعنا الجمال من دون حراسة، فالجمال تعيش جماعات ولا تحب الافتراق عن بعضها. ولكن حالما نادى صاحب إحدى النياق ناقته، اندفعت باتجاهه ملبية النداء. وأذكر جملاً آخر كان متعلقاً بصاحبه، كما يتعلق الكلب، وخلال الليل كان يأتي إليه وهو يرغي بلطف، ويشم رائحته حيث يرقد قبل أن يعود ليرعى. وأخبرني رفاقه (أن هذا الجمل لا يسمح لغير صاحبه) أن يمتطيه من دون أن يأخذ معه قطعة من ثياب صاحبه فيشمها، تأكيداً على العلاقة بين صاحب الجمل وبين الشخص الذي جاء ليمتطيه.

والعرب يستمتعون بالنظر إلى النياق الجميلة، كما يستمتع البريطانيون بالنظر إلى الحصان الجميل. وفي الحقيقة هناك شعور عظيم بقوة ورشاقة وانسياب هذه البهائم، "وبكل تأكيد (يقول ثيسجر) لم أر مشهداً في حياتي أجمل من مشهد العرب وهم يتسابقون على نياقهم الأصيلة". ويدخل الجمل في أدبيات البدو وأشعارهم فهم يستخدمون كثيراً من العبارات الجميلة للتعبير عن سلالات الجمال، وألوانها، وجنسها، وعمرها، ومراحل نموها، وغير ذلك مما يتعلق بالجمال (ص ٧٥). النياق لطيفة لا تعض، أما الجمال فإنها تعض، وتسبب جروحاً

بالغة، وخصوصاً خلال فترة نزوتها. وقد سبق ثيسجر أن عالج رجلاً في السودان كان جملاً قد عضه وفتت منه العظم (ص ٥١).

والبدوي كان يمشي خلف نياقه مسلحاً ببندقيته، فهذا من متطلبات السير في الصحراء، يقول ثيسجر: "كنا نمشي وراء النياق وبنادقنا على أكتافنا ممسكين بها من الفوهات. وكانت هذه طريقة البدو في حمل بنادقهم. في البداية وجدت الأمر مدعاة للاضطراب، خصوصاً أن البنادق كانت محشوة، ثم اعتدت على ذلك، وصرت أفعل الشيء نفسه"، فالعادات عند البدوي مستقرة، ويصعب تغييرها أو تعديلها. أما حين يركب البدوي ناقته فإنه يعلق بندقيته تحت ذراعه موازية للأرض (ص ٥٢).

والبدو في الجزيرة العربية لا يمتطون الجمال، بل يمتطون النياق. أما في السودان "فكنت أمتطي دائماً جملاً، لأن النياق في تلك الأجزاء من الصحراء التي زرتها تستخدم للحليب ولا أحد يمتطيها. والقبائل العربية تستخدم الجمال في نقل البضائع بالأجرة، أما قبيلة (كثير) فكانت تذبح الجمال حال ولادتها، لذلك كانت تعيش في الغالب على حليب النياق، وتتحاشى الإنفاق على حيوانات لا تعطي مردوداً، خصوصاً مع عدم وجود تجارة في هذه الصحراء. ونادراً ما كانت تحتفظ بالجمال الذكور للتكاثر.

ويحكي ثيسجر أنه عندما سافر إلى حضرموت، كان يرافقه رجل يركب جملاً، وكان رجال القبائل يلاحقونها بنياق يريدون تلقيحها. ومع أن هذه العملية كانت تؤثر على قدرة الجمل. إلا أن صاحبه لا

يستطيع الرفض بحجة توفير طاقة جمله، فقد جـرت العـادة أن يلبـي صاحب الجمل طلب سفد النياق (ص ٥٠). ومن خلال خبـرة ثيـسجر المباشرة مع البدو في الإمارات لاحظ أنهم يتخذون الاحتياطات اللازمة للحيلولة دون التواصل بين الجمال المشاركة في السباق والنياق.

بإمكان كل شخص من البدو أن يتعـرف علـى أثـر جمالـه، وبعضهم كان يتذكر أثر كل جمل سبق له أن شاهده. ومن نظرة واحدة على عمق آثار خف الجمل يمكن أن يعرفوا ما إذا كانت الناقة محملة أم لا، وما إذا كانت حاملاً أم لا. ومن خلال تفحصهم ودراسـتهم للأثـر الغريب يمكنهم معرفة من أين قدم الجمل، فالبدو يـستطيعون التعـرف على جمال القبائل، لأن القبائل المختلفة تمتلك جمالاً من فصائل مختلفة. ولدى تفحص روثها يستطيعون أيضاً تحديد المرعى الذي أكلـت منـه، ويعرفون بالتأكيد متى شربت آخر مرة، ومن أين أتت. ويمكنهم التكهن بالقبائل التي ستغير على بعضها.

والجمل ليس الحيوان الوحيد عند بعض القبائل، فقد كانت قبيلـة (قرة) في مسقط تمتلك بعض قطعان البقر والجمال والماعز، ولم يكـن لديها خراف أو خيل أو كلاب. ومعظم العائلات كان لديها عـشرين أو ثلاثين بقرة.

وفي حال وفاة الرجل، كما يروي تومـاس، تـضحي عائلتـه بنصف عدد بقراته. وهي عادة كانت تمارسها قبيلة (وهيبة) العمانيـة. ويقارن ثيسجر عادات البدو في كل من السودان والجزيرة العربية (ص ٤٢)، فيقول: هناك عادة كانت تمارسها قبيلة (النـوير) فـي جنـوبي

السودان، وهي أنه قبل أن يحلب الرجل البقرة يحظر على النساء لمس الثديين، وأحياناً يضع شفتيه على فرج البقرة وينفخ فيه لحملها على الإدرار (ص ٤٣).

هذه بعض جوانب من عادات البدو، وتقاليدهم في التعامل مع حيواناتهم، التي تشكل ركناً مهماً وأساسياً من مقومات حياتهم. ولذلك كانوا يحرصون على تأمين غذاء حيواناتهم في المقام الأول، لأن في ذلك تأمين لغذائهم أنفسهم، والمناطق التي توجد فيها العيون والآبار أو تلك التي تتساقط فيها الأمطار، تظهر فيها المروج الخضراء، وهي مناطق كان البدو يقفون ويغنون كثيراً عندها، ويتوغلون في القفار الخالية أمامهم فيتباطؤن، قاطعين مسيرة ساعة في اليوم، الأمر الذي كان يغتاظ منه ثيسجر، "إذ كلما وصلنا إلى مرعى توقفوا فيه"، ولم تكن هذه المراعي تستحق التوقف عندها، لأنها لا تزيد عن بضع شجيرات خضراء، فالخضرة الحقيقية نادرة في الصحراء.

ويقارن ثيسجر دوماً بين تجربته في السودان وتجربته في جزيرة العرب؛ "كنا في السودان نطعم الجمال بأيدينا، لذا كنت أشعر بغيظ لهذا التأخير، وأعد الأيام الضائعة. وخامرتني الشكوك بأن الأعراب يحاولون إطالة الرحلة للحصول مني على مزيد من المال" (ص ٥٧). فرفاق ثيسجر هنا كانوا مستأجرين لخدمته، ولهذا كان يتهمهم بالتباطؤ ليعدوا عليه الأيام ويأخذون منه أجرها.

ولم تكن حياة البدو آمنة دائماً، فالغزوات والغزوات المضادة كانت من بين ثقافة البدو السلوكية والرياضية. وقد عانت قبيلتا الرواشد

والمناهل الحليفتان من غزوات قبيلة دهم، وكانت مقاومة قبيلة دهم صعبة في الصحراء، فقلة المراعي كانت تجبر البدو على العيش في جماعات صغيرة مبعثرة، والرجلان أو الثلاثة الذين يرعون عشرات الجمال لا يملكون القوة لمقاومة الغزاة. وكل ما كانوا يفعلونه هو الفرار على أسرع الجمال، تاركين وراءهم النساء والأطفال، لأنهم يعرفون أن الغزاة لن يمسوهم بأذى، وكل ما سيقومون به هو الاستيلاء على بعض الجمال، ولم تكن أمامهم الفرصة للحصول على غنائم كثيرة في يوم واحد، لأنهم يعرفون أنهم حالما يكتشفون، ستدوي الصيحة في أرجاء الصحراء وسيتجمع أعداؤهم لمطاردتهم (ص ٦٦).

ورغم أن حياة البدو تقوم أساساً على أن القوي هو الذي يملك زمام المبادرة في كل شيء، في صحراء لا حوائط فيها ولا أمان، إلا من خلال القوة الذاتية، فقد لمس ثيسجر بعض جوانب القوة عند الأفراد العاديين، وهي القوة التي فرضتها عادات الصحراء وصقلت بها البدو.

يحكي ثيسجر أنه رأى، أثناء رحلته الأولى للربع الخالي، عند بطن الجبل المطل على السيل وصلالة، رجلاً كهلاً يتقدم نحوه، ثم ألقى بالتحية، ثم وقف يحملق به. كان الرجل يلبس مئزراً قصيراً، ولا يحمل خنجراً دليلاً على الفقر. نظر الرجل إلى ثيسجر لبعض الوقت ثم قال: "جئت لأرى المسيحي (ثيسجر)". يكشف هذا الموقف عن حالة العزلة الاجتماعية التي كان يعيشها البدو في صحراء الربع الخالي. قال أحد الرفاق إنه من قبيلة (شهارة). وقال ثيسجر في سخرية: "تساءلت عما يرى هذا العجوز، ربما كان يرى ببصره الضعيف نهاية العالم قبل

وقوعها"، وقال أحد الرفاق إنه مجنون. "ولكني تساءلت عما إذا كان يرى الأشياء أكثر وضوحاً مما يرونها، ويشعر بالتهديد الذي يمثله حضوري، فيما يتعلق بتعجيل انحلال مجتمعه وتدمير معتقداته" (ص ٧٣).

ورغم ذلك كله، لا يخفي ثيسجر إعجابه بالبدو وبأسلوب حياتهم فيقول: "عندما كنت مع العرب تمنيت أن أعيش مثلهم، والآن وبعد أن تركتهم، صرت أتمنى من كل قلبي ألا يغير مجيئي شيئاً في حياتهم. لكني للأسف أدركت أن الخرائط التي وضعتها ساعدت آخريين على تحقيق أهدافهم في إفساد قوم كانت روحهم تضيء الصحراء كما الشعلة" (ص ٧٤).

هذه الروح المفعمة بالحياة والأمل رصدها ثيسجر حين التقى بعض رجال قبيلة كثير، الذين قدموا إليه في صلالة عام ١٩٤٥، وكان شيخهم يدعى سليم تمتايم، وهو رجل عجوز عيناه براقتان ولحيته خطها الشيب، قيل إنه في الثمانين من عمره، وإنه تزوج للتو من إمرأة أخرى، ورد الرجل نفسه "أي والله، ما زلت قادراً على ركوب الجمال والصيد". وهذا يعني أن قوة الرجل تظهر عند قدرته على ركوب الجمال والصيد (ص ٤٣).

وبعد عام تقريباً، وفي أكتوبر ١٩٤٦ التقى ثيسجر تمتايم هذا مرة أخرى، وكانت زوجته الجديدة قد وضعت للتو طفلاً، وراح تمتايم يرقص فرحاً ليثبت أنه لا يزال يتمتع بقوة الشباب، التي مكنته من أن ينجب طفلاً (ص ٧٠).

أما علاقة البادية بالحضر في عمان، فقد رصد ثيسجر هذه العلاقة أثناء تواجده بالقرب من صلالة سمع خلالها أن رجال قبيلة بيت (كثير) الذين سيرافقونه في رحلته وصلوا إلى صلالة، التي قرر العودة إليها برفقة بعض رجال (قرة) الذين يحملون معهم الزبدة والحطب والعسل البري بغرض بيعه في السوق. وقالوا إنهم سيشترون، السردين المجفف لإطعام حيواناتهم لاحقاً في الموسم الذي يصبح الرعي فيه نادراً (ص ٤٣).

ويضيف ثيسجر أنه مر لدى دخوله بلدة صلالة بقافلة صغيرة تضم رجلين وأربعة جمال، مربوطة رأساً بذيل، وكانت الجمال محملة بالبخور الذي أصبحت تجارته راكدة تلك الأيام. وبالكاد يفوق أهميتها بيع وشراء الماعز وحطب الوقود في سوق صلالة (ص ٣٩).

هذه العلاقة بين البدو والحضر، تتبلور في شكلها السياسي من خلال رصد العلاقة السياسية بين البدو والحاكم الذي يتخذ من مسقط مقراً له. فقد كانت قبيلة (قرة) تعيش على بعد بضعة أميال من صلالة، وكانت سلطة سلطان مسقط عليها محدودة، فالعرب يميلون إلى الحكم وليس إلى الإدارة. والحكومة عندهم فردية إلى حد بعيد، ونجاحها أو عدم نجاحها يتوقف على مدى الخوف أو الاحترام الذي يتمتع به الحاكم، وعلى مهارته في معاملة الرجال، ولأنها حكومة مؤسسة على الحياة الفردية، فإنها معرضة للانهيار في أي لحظة، وهذا النظام مفهوم ومقبول لدى رجال القبائل، ونجاحه أو فشله لا يقاس بشروط الكفاءة أو

العدالة، وفقاً للمقاييس الغربية، والأمن يمكن أن يشتري بأي ثمن لقـاء فقدان الحرية الشخصية (ص ٤١).

يكشف هذا الرصد عن جوانب من حيـاة البـدو، تتمثـل فـي علاقاتهم ببعضهم، وعلاقاتهم بالمجتمعات المستقرة، وعلاقاتهم بالحاكم، وعلاقاتهم بحيواناتهم، إنه مجتمع عاش وربما لا يزال يعيش صوراً من الحياة لا تزال غير مألوفة، ولكن يجب الوقوف عليها باعتبارها نمطـاً ثقافياً يستحق التأمل.

المصادر والمراجع العربية والمعربة

* أحمد سعيد باحاج، الرحلات والدراسات الجغرافية لحضرموت (جدة، مكتبة الجسر، ١٩٨٨)

* آن بلنت، رحلة إلى بلاد نجد، ترجمة محمد أسعد غالب (الرياض، دار اليمامة، ١٩٧٨)

* بلقاسم سعد الله، "رحلة ليون روش إلى الحجاز ١٨٤١و ١٨٤٢" في كتاب: دارة الملك عبد العزيز، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، جـ١ (الرياض، الدارة، ١٤٢٤)

* جمال محمود حجر، " الدوادمي وخطة توحيد المملكةالعربية السعودية"، المجلة العربية، العدد ٨٥ (نوفمبر ١٩٨٤)

* جمال محمود حجر، السعوديون والأزمة المالية (الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥)

* جمال محمود حجر، إضاءات حول الرحالة الغربيين في الإمارات والجزيرة العربية، مجلة الرياضة والشباب، العدد ٩٤٦ ، ١ـ ٨ يونية (١٩٩٩)

* جمال محمود حجر، دراسات في التاريخ الأمريكي (الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٣)

* جورج برسي بدجر، رحلات فارتيما، ترجمة وتعليق: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الألف كتاب الثاني، رقم ١٣٤(القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤)

* جوزيف بتس ، رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة ودراسة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥)

* جيرالدين راندل، "رحلة عبر المملكة العربية السعودية، ١٩٣٧- ١٩٣٨" ترجمة وتعليق: جمال محمود حجر مجلة الدارة .

* حسين محمد فهيم، أدب الرحلات (الكويت، عالم المعرفة، ١٩٨٩)

* حسين محمد فهيم، الرحلة والرحالة (دبي، ندوة الثقافة والعلوم،١٩٩٧)

* خالد البسام، مذكرات شريفة الأمريكانية (كورنيلا دالنبرج)، (المنامة، بانوراما الخليج، ١٩٨٩)

* خالد البسام، القوافل (البحرين، ١٩٩٣)

* خالد البسام، صدمة الاحتكاك، حكايات الإرسالية الأمريكية في الخليج والجزيرة العربية، ١٨٩٢ ــ ١٩٢٥ (بيروت، دار الساقي، ١٩٩٨)

* روبن بدول، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة : عبد الله آدم نصيف (الرياض، ١٩٨٩)

* عبد الله بن محمد المطوع، " الرحالة الغربيون ورواياتهم عن الإحساء" في: كتاب: دارة الملك عبد العزيز، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، جـ١، (الرياض، الدارة، ١٤٢٤)

* عبد العزيز عبد الغني، "آن الإنجليزية" مجلة تراث ، العدد ١٣ (١٩٩٩)

* عبد العزيز صالح، الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث في شبه الجزيرة العربية (الكويت، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ١٩٨١)

* عبد الهادي التازى، " أدب الرحلات: هل سيختفي من الساحة ؟ " ، في كتاب: دارة الملك عبد العزيز، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية ، جـ١ (الرياض، الدارة،١٤٢٤)

* منير يوسف طه، اكتشاف العصر الحديدي في دولة الإمارات (البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٨٩)

* ويلفريد ثيسجر، الرمال العربية، (أبو ظبي، موتيف ايت، ١٩٩٩)

* يحيى عبد الرءوف جبر، " شمال شبه الجزيرة العربية فى مصنفات الرحالة" فى كتاب: دارة الملك عبد العزيز، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، جـ١، (الرياض، الدارة، ١٤٢٤)

المصادر والمراجع غير العربية

* Bell, Gertrude Lowthian, "A Journey in Northern Arabia", **Geographical Journal**, vol. 44, no.1, (1914)

* Carruthers, D., "Captain Shakespear's Last Journey", **Geographical Journal**,LIX (1922)

* Doughty, C. M., **Travels in Arabia Deserta** (London,1923)

* Draper, Miss Christable, "Early Women Travelers in Arabia", **The Asiatic Review** , vol. xxvii (1931)

* Forbes, Rosita (Mrs. McGrath), "A visit to the Idrisi Territory in Asir and Yemen", **Geographical Journal** , vol. 62, (1932)

* Hagar, G.M., **Britain, Her Middle East Mandates, and the Emergence of Saudi Arabia,** (Ph. D. 1981)

* Hogarth D, G., "Wahhabism and British Interests", Journal of British Institute of International Affairs, vol.4, (1925)

* Hogarth D, G., "Gertrude Bell's Journey to Hayil", **Geographical Journal** , vol. lxx,No.1, (1927)

* Rendel, Geraldine, "Across Saudi Arabia", **Geographical Magazine**, vol. 6, no. 3, 1937-1938.

* Taylor, Andrew, **Traveling the Sands**

Wellsted, **Travels in Arabia**, (Graz – Austria,1978)*

* Wilson , Sir Arnold T. " Early Spanish and Portuguese Travellers in Persia", **Asiatic Rreview**, vol. 23 (1927).

* Winstone, H.V.F., **Captain Shakespear, A Portrait** (London, 1978)

* Winstone, H.V.F., Gertrude Bell (London, 1978)

المحتوى

الرحالة الغربيون
في المشرق الإسلامي
في العصر الحديث

أ/ د: جمال محمود حجر





